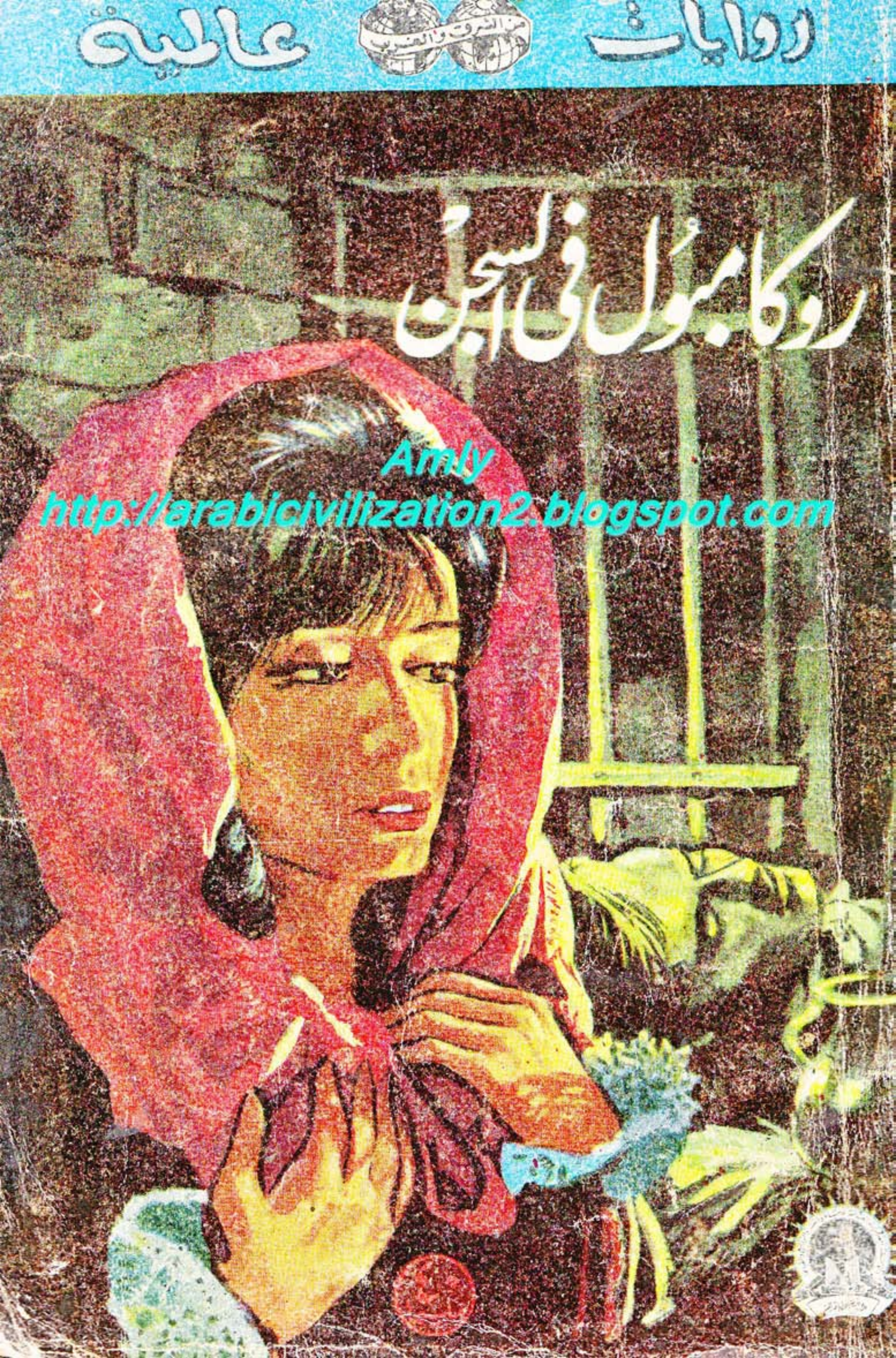

روايات عالمية
روكامبول في السجن
Amly
http://arabicivilization2.blogspot.com

روايات عالمية

روكامبول في السجن

رواية بوليسية حافلة بمغامرات البطل الداهية
روكامبول

بقلم

الكاتب الفرنسي الكبير

بونسون دي تيرايل

مقدمة

— ١ —

بعد غيبة اربعة أعوام رجع روكامبول الى وطنه فرنسا .

امضى هذه الأعوام فى انجلترا ناجيا بنفسه من انتقام باكارا بالكونت ارمان دى كرجاز . منصرفا عن الشرور ، يعيش كما يعيش الرجل الانجليزى الشريف الذى لا يخطر له ببال الا ان يكتسب رزقه بنزاهة وأمانة ..

واذ رجع كانت فى جيبه مذكرات استاذه العظيم الفيكونت اندريا .

وانزوى روكامبول فى مقصورته يطالع هذه المذكرات . فالفى فيها قصة عن طفل غادر فرنسا وهو فى العاشرة من العمر والتحق بشركة الهند للملاحة يتدرب على فنون البحر .

ومذ سافر مضت ثمانى عشرة سنة لم ير فيها هذا الطفل وطنه وأهله .

وكانت فى انتظاره فى فرنسا أم حنون واخت وفية .. كل منهما تتلهف الى لقائه .. ولكن دون أن ينتهى اليهما نبأ من انبائه . اذ كان أبوه قد اختطفه اختطافا والحقه بتلك الشركة نكاية بزوجته اذ ظن انها خانته واحبت سواه فباعد بينها وبين طفلها انتقاما منها .

قرأ روكامبول هذه المذكرات . ولكنه مع ذلك ظل فى حيرة من أمره ..

من تكون هذه الأم ؟ ومن يكون هذا الأب المنتقم ؟ وما اسم تلك الاسرة ؟ وأين تقيم ؟

تلك اسئلة جالت بخاطره دون ان يدرى لها جوابا .

لا لأن اندريا لم يدونها فى مذكراته عجزا منه .. وانما لانه دونها باللغة الهيروغليفية ــ لغة قدماء المصريين ــ رغبة منه فى التعمية والابهام حتى اذا وقعت مذكراته فى يد غير مؤتمنة استحال على صاحبها ان يفهم ما فيها وقصر عن الاستفادة منها .

وهكذا لبث روكامبول حائرا لا يدرى كيف السبيل الى استغلال هذه المعلومات النفيسة .. فلو انه كان يعرف اسم هذا الابن الغائب . هذا الابن الذى لم يره أحد من أهله فى خلال ثمانية عشر عاما لاستطاع ان ينتحل شخصيته وان يتقدم الى الام الولهى قائلا :

ــ هأنذا ابنك الغائب قد رجعت اليك .

فتتلقاه بين ذراعيها .. ويصيب تلك الثروة الضخمة التي يتلهف اليها .

* * *

ولكن الشيطان الذى يناصر المجرمين ابى أن يدعه فى حيرته واذ كان على ظهر السفينة وقد بدأت نذر العاصفة ،أخذت عينه شابا يفحص الافق البعيد بمنظاره المكبر .

واقترب منه وتبادلا الحديث .

وقال الشاب أنه راجع الى فرنسا ليرى أمه وأخته بعد أن غابُ عنهما ثمانية عشر عاما .

وخفق قلب روكامبول وقال .

ـ وأين كنت طيلة هذه الغيبة ؟

ـ كنت فى بلاد الهند .. كنت بحارا فى شركة الهند للملاحة .. لقد التحقت بها وانا فى العاشرة من العمر

وما سمع روكامبول هذه الكلمات حتى أدركه الاضطراب .. لم يعد لديه شك فى أن هذا الفتى الماثل امامه هو ذاك الابن الغائب الذى كان يتمنى منذ لحظات أن يعرف اسمه لينتحل شخصيته .

واشتدت العاصفة .. وحلت الاخطار .

ثم ارتطمت بصخر كبير وجنحت الى الغرق . وتواثب الركاب الى البحر أو الى قارب النجاة

ووثب الابن الغائب الى البحر وروكامبول فى اثره

لقد صح عزمه على أن يتعقبه فاما ماتا معا واما نجوا معا .. واذا ما تمت النجاة قتله روكامبول وانتحل شخصيته .. وظفر بلقب المركيز وثروته .

ولكن الوهن ما لبث أن أدرك روكامبول .. وعجز عن مغالبة الامواج وأشرف على الهلاك

وصاح مستنجدا :

وخف الابن الغائب الى نجدته .. تحول اليه وجذبه من شعره وجعل يسحبه على سطح الماء وروكامبول غائب عن الوعى

واذ استفاق الفى نفسه راقدا على الرمال وأشعة الشمس تغمر الارض

ولكنه لم يجد أثرا لصاحبه .

وبعد برهة تناهى الى سمعه صراخ استنجاد

وتناهض وسار صوب صرخات الاستنجاد

وفى حفرة الفى صاحبه يناديه .

ـ ما الذى حل بك ؟
ـ رايت سفينة فأسرعت الوح لها وعميت عن هذه الحفرة القائمة عند قدمى فهويت اليها .. انقذنى يا صديقى .
ـ وكيف أنقذك !؟
ـ على مقربة من المكان الذى كنت فيه تجد منطقتى وفيها أوراقى وحبل طويل يمكنك أن تعقده حول صخرة ثم تدليه الى
وفحص روكامبول الحفرة بنظرة عاجلة .. الفاها عميقة ملساء مستقيمة الجوانب . فلا سبيل الى خروجه منها الا بمساعدته !. وتلك جزيرة صغيرة صخرية ليس فيها انسان يخف الى نجدته خلاف روكامبول .
وعول على أن يتركه يموت .. يترك ذلك الذى انقذه من الموت .!
وانطلق من فوره الى منطقة الفتى .
نشر أوراقه أمامه وراح يقرؤها .
وفيها عرف الاسم . هذا الابن الغائب يدعى المركيز دى شامرى .
راح يقرا .. ويقرا وعرف جميع التفاصيل .. وكان بين الاوراق خطاب مسهب من الام تقص فيه على ابنها كيف ارتاب الاب فى سلوكها فاختطفه نكاية فيها دون ان تعلم مصيره ..الى أن حضرت الوفاة الاب وأدرك ان امراته طاهرة الذيل .. فانبأها بالحقيقة وان ابنها ضابط بحرى فى شركة الهند للملاحة
واختتمت الام كتابها بقولها :
« فعد الى يا بنى .. لاضمك الى قلبى واسلمك تلك الاموال التى خلفها ابوك ..! »
وابتسم روكامبول وقال :
ـ انى راجع اليك يا اماه ..!
ووثب الى البحر يسبح فى اتجاه الشاطىء وقد أصبح منذ هذه اللحظة يدعى المركيز دى شامرى .

ـ ٢ ـ

لم يكن روكامبول من البلاهة بحيث يمضى الى امه فورا فينبئها انه هو المركيز دى شامرى فيفضحه جهله ببلاد الهند وعوائد اهلها . وقد أمضى فيها ـ كما هو مفروض ـ ثمانية عشر عاما .
سافر روكامبول الى الهند فورا وقضى فيها ستة شهور درس فيها طباع أهلها . وعاداتهم وعرف اسماء البلاد ومواقعها

ودرس فنون البحر حتى تتوثق معـلوماته البحرية . معـلومات رجل قضى حياته فى البحار .
وبعد ستة شهور رجع الى فرنسا

ولكنه الفى ان أمه قد ماتت منذ يومين . قتلتها صدمةالفرح بلقائه بعد أن كتب اليها ينبئها بعودته .
وتلقته « اخته » بلانش تقبله وتقرا فى عينيه حب الاخـو المكين .
وقدمته الى اغنياء باريس ونبلائها .
وعرف فيمن عرف أسرة الدوق سالاندريرا الاسبانية .
وكانت للدوق ابنة باهرة الحسن عظيمة الثروة
وفتنت ثروتها روكامبول وعول على أن يتزوج الفتاة .

ولكن كيف السبيل اليها وهى مخطوبة الى ابن عمها الدون جوزيه ؟.
وللمرة الاولى ذكر روكامبول استاذه اندريا .

لقد ذهب به البحارة اتباع الكونت ارتوف الى استراليـــا ليرموه الى القبائل المتوحشة بعد ان فقأوا عينيه وقطعوا لسانه انتقاما لمولاهم .
ولا ريب ان اندريا الان رمة بالية لم يبق منها الا العظامبعد ان أتى المتوحشون عليها .
لو انه كان موجودا على قيد الحياة لاستطاع بقريحتهالوقادة الجهنمية أن يذلل العقبات، وان يدبر من المكائد والدسائس مـا يحمل ابنة الدوق على أن تجثو أمام روكامبول وتقول ضارعة :
ــ بحق السماء تزوجنى ..!
ولكن اندريا قد ذهب . وليس لروكامبول حذق اســـتاذه وبراعته الجهنمية .
ولكن شيطان الشر أبى ان يتخلى عنه .
اتفق يوما وهو يجوب ملهى من ملاهى باريس أن اخذتعينه رجلا مفقوء العينين مقطوع اللسان مشوه الوجه .. وكان صاحب الملهى يعرضه على المتفرجين ويروى للقوم قصته فيزعم انهمتوحش وقع بين أيدى أعدائه فمثلوا به أشنع تمثيل .
وما رآه روكامبول حتى عرفه على الفور .. انه اســـتاذه اندريا .!
وابتاعه من صاحب الملعب ومضى به الى دار له صغيرة . وهو يزعم لأصحابه انه بحار كان يعمل تحت أمرته وانقذه من الموتيوما

الرأى برا به ان يؤويه لديه وأن يحاول أن يشفيه من تلك النكبة التى حلت به ..
ولكن الطبيب عجز عن أن يرد اليه موهبة الكلام او حاسة النظر .. كل ما استطاعه انه ازال تلك التشوهات المنفرة . فلم يبق فى وجهه منها الا اثار خفيفة لا تقذى بها العين تشبه ماينجم عن رشاش الماء المغلى .
وقص روكامبول على استاذه ما كان من أمره وكيف انتحل شخصية المركيز دى شامرى .
وقال :
ــ ولكنى اريد أن أقترن بابنة الدوق دى سالاندريرا فلتكن أنت يا استاذى الرأس المدبر ولأكن انا اليد المنفذة .!
وغرق اندريا برهة فى خواطره ثم رفع رأسه وقال « كتابة »:
ستتزوج ابنة الدوق !.
ومنذ هذه اللحظة بدأت الدسائس والمكائد ..

– ٣ –

كان الدون جوزيه خطيب ابنة الدوق رجلا فاسقا خليعا لا يقتنع من العشيقات بواحدة فاتخذ اثنتين ، وكان حريصا على ارضائهما حذرا من أن ينكشف أمر هذه العلاقات السرية لخطيبته
وكانت عشيقته الأولى اسبانية من النور جاء بها من بلادها واقامها فى باريس فى دار منعزلة وحرم عليها مغادرتها غيرةعليها وانشأ فى الدار سردابا سريا يستطيع بواسطته أن ينتهى الى مخدع عشيقته فى اى وقت شاء فيقف فى فجوة الجدار يرقب ما يجرى فى المخدع دون أن تشعر به صاحبته أو تدرى بوجوده ..

ثم كان ان فتر حبه ، فلم يعد يحفل بها وان كان حريصا على موافاتها فى الموعد المضروب خشية بطشها وانتقامها ..
وعلق قلبه فى ذلك الوقت بغانية من بنات الهوى رأت أن تزيد غرامه ضراما فزعمت له انها زوجة نبيل روسى سافر الى بلاده لأمر ما ..

وقد أبت هذه الغانية على الدون جوزيه أن يعرف دارها ــ والا عرف انها عاهرة ــ فكانت ترسل اليه خادمها فيحضره الى بيتها معصوب العينين متعللة بانها لا تريد ان يعرف دارها خشية أن يزورها فى وقت غير ملائم فينفضح امرهما عند زوجها المزعوم.
وعرف روكامبول بمراقبتهالدون جوزيه هذه العلاقة المزدوجة

وفى الوقت نفسه جعل يتقرب الى ابنه الدوق ويحاول ان يكتسب ثقتها ..

وفى ذات مساء وصلته رسالة منها تدعوه الى مقابلتها فى الحديقة عند منتصف الليل . فلما خف اليها دفعت اليه رسالة كبيرة قرأها فعرف انها سمعت حديثا بين الدون جوزيه وعشيقته النورية فهمت منه انهما دسا السم للدون بدرو شقيق الدون جوزيه ، اذ كان هو خطيب الفتاة فاراد جوزيه أن يزيحه من الطريق حتى يخلو له الجو فيقترن بابنة عمه ويستمتع بثروتها .

وقد ارادت ابنة الدوق ان تفضح أمره ولكنه توعدها بأن يرسل اياها الى المشنقة ، اذ كان الدوق نفسه قد ارتكب جريمة فى صباه : اذ قتل أخاه .

ولما انتهت هذه المعلومات الى روكامبول راح يستغل الامر طبقا لارشادات أستاذه اندريا

فلما عرف بأمر السرداب السرى ظهر فجأة امام النورية عشيقة الدون جوزيه فحسبته شيطانا . وبدأت منذ هذه اللحظة تنصاع لتعليماته . لاسيما وقد انقذها مرة من سم دسه لها جوزيه . اذ كان قد سئمها وخشى انتقامها حين ارتابت فى انه يحب سواها .

وراح روكامبول يستغل هذه الغيرة الجنونية واكد للعشيقة النورية ان لصاحبها عشيقة أخرى وجعلها تقسم على أن تقتله اذا ايقنت من الأمر .

وفى أحد المراقص جمع روكامبول بين العشيقتين .

وكان قد اتصل فى الوقت ذاته بالفانية التى يعشقها الدون جوزيه ودفع اليها من المال ما جعلها طيعة مذعنة .

فلما اجتمعت العشيقتان وعلى الوجوه اقنعة التنكر . جعلت الفانية تتحدث الى الدون جوزيه حديث غرام . والعشيقة النورية مقنعة على كثب منها وهو لا يعلم بامرها .

وسمعت النورية هذا الحديث فاستلت خنجرها واغمدته فى صدر الدون جوزيه فخر صريعا .

وفى الوقت نفسه كان روكامبول قد دس لها السم فما مضت دقائق حتى انقلبت صريعة بدورها ولفظت انفاسها .

وهكذا استطاع روكامبول بمعونة استاذه اندريا ان يكتسب ثقة ابنة الدوق وان ينقذها من خداعها اياها وعدها .

وفى الوقت نفسه خلا امامه الجو فقتل منافسه فى زواج

تلك الفتاة الثرية . وقضى على الفتاة النورية التى تعرف من سره ما ينبغى ان يظل مكتوما .
ولم يعد أمامه اذ ذاك الا ان يتقدم الى ابنة الدوق فيخطبها ويظفر بثروتها العظيمة .

- ٤ -

طاب روكامبول نفسا بخلاصه من منافسه في زواج ابنة الدوق .
ولكن اندريا لم يطب نفسا .
كان يعلم ان المهمة الخطيرة لم تنته عند قتل الدون جوزيه . فقد يظهر فى الميدان منافسون جدد . وعندها تكون المهمة أشق واقسى .
تحول اندريا الى تلميذه وقال :
- اتعرف أن هناك من خطب الفتاة ثم رفضت خطبته ؟.
ولقد القى اندريا هذا القول الى تلميذه كتابة ، اذ كان كما علمنا مفقوء العينين مقطوع اللسان .
وقال روكامبول مجيبا :
- نعم .. لقد خطبها الدوق شاتو دى ميلى صديق باكارا
واجفل أندريا عند سماعه اسم باكارا ، اذ كانت هى عدوته الرهيبة التى أنزلت به هذه النكبات
وقال :
- والان وقد مات الدون جوزيه فسيتقدم الدوق دى ميلى يخطب الفتاة من جديد . ولا شك ان اباها سيؤثره عليك . فان لقب الدوقية خير من لقب المركيزية ..
- وما الصنع اذن ..؟
- ينبغى ان نرقب الأمر حتى اذا راينا الدوق دى ميلى يخطب يتقدم الى الميدان قضينا عليه
- واذ ذاك يخلو لى الجو ..؟
- كلا .. وانما ينبغى أيضا أن تقضى على باكارا او على الاقل تشغلها عن الاهتمام بأمر الدوق ، فانها صديقته الوفية ..ولاريب عندى فى أنها ستمد اليه يد المعونة فى مشروع زواجه .
وصح ما توقعه ذلك الداهية الاريب .
تقدم الدوق دى ميلى يخطب ابنة الدوق دى سالاندريرا . وعمدت باكارا الى مساعدته .
وكانت باكارا فى تلك الأيام موجودة فى الروسيا مع زوجها

الكونت ارتوف . وقد اتفق ان اتصلت بروسى من أصل فرنسى فعرفت منه أنه عم للدوق دى ميلى وان أسرة دى ميلى قد اتصلت بأسرة دى سالاندريرا منذ جيل أو اكثر بصلة النسب . اذ نزح بعض أفراد الاسرتين الى روسيا فتزاوجا وعاشا فيها مندمجين دون أن يعلم بالأمر سائر أفراد الأسرتين فى اسبانيا أو فى فرنسا .

واغتبطت باكارا بهذه القربى اذ كان قد انتهى اليها ان الدوق دى سالاندريرا متردد فى المصادقة على تزويج ابنته من الدوق دى ميلى لرغبته فى ان يزوج فتاته لقريب لها .

وعولت باكارا على ان تحمل هذا النبأ الى الدوق دى ميلى بمجرد هبوطها باريس .

* * *

وفى ذلك الوقت كان ذلك الشيطان اندريا قد بسط شباكه ومكائده فاهتدى تلميذه روكامبول الى فتاة من بنات الهوى تدعى ريبيكا هى أخت غير شرعية لباكارا . وكان الشبه بينهما عجيبا الى درجة يستحيل على المرء ان يتبين أى فرق بينهما الا أن يكون ذلك فى صفاء العينين واتساعهما . وهذا أمر شاق

وأتى روكامبول بشاب ساذج مغرور يدعى رولان دى كلاية كان قد التقى بباكارا فى المانيا وتعرف اليها فهام بها غراما ...

ثم دبر روكامبول الامر وجعل يزور على باكارا رسائل يبعث بها الى رولان فيذهب الى لقاء ريبيكا فى دار سرية استأجرتها خصيصا لهذا الغرض . وهو يحسب انها هى باكارا زوجة الكونت ارتوف .

وقد انبأته باكارا المزعومة انها تركت زوجها فى روسيا وسبقته بايام لتتاح لها فرصة تلتقى فيها برولان زاعمة انها فتنت به غراما

وكان رولان مغرورا شديد الخيلاء فكان اذا ما مضى الى النادى أطلع أصحابه على رسائل باكارا وراح يروى لهم كل ما يجرى بينهما فخورا مزهوا ...

ولقد بلغ من زهوه انه دعاهم الى الاوبرا ليشاهدوا عشيقته عن كثب اذ أنكر بعضهم انها الكونتس ارتوف واكدوا له انها امراة فاضلة ..

وفى دار الاوبرا . وتنفيذا لتعليمات روكامبول ازاحت ريبيكا نقابها قليلا فرآها الجميع وأيقنوا انها الكونتس ارتوف ..!

ودبر روكامبول الامر أيضا بحيث جعل صهره الكونت فابيان ـ زوج أخته بلانش ـ يمضى الى دار رولان فى وقت معين فيرى بعينى رأسه الكونتس ارتوف « المزعومة » تترامى بين ذراعى رولان

ورجع فابيان الى روكامبول حزينا منقبض النفس .. اذ كان صديقا حميما للكونت ارتوف وقال :

ـ الا تبا لها .. لقد رأيتها بعينى رأسى .! ان المراة الساقطة اذا تابت كانت كالوحل يجف فيستحيل غبارا . ولكن نقطة واحدة من الماء كفيلة بأن ترده وحلا كما كان .! وهكذا تردت الكونتس ارتوف الى هاوية الدعارة التى انبعثت منها .

ـ ٥ ـ

رجعت باكارا الى باريس ودعت الدوق دى ميلى الى لقائها وكان روكامبول بالمرصاد .

كان قد أقام فى خدمة باكارا وفى خدمة الدوق وفى خدمة رولان رجالا من أعوانه ينبئونه بما يقع . فلا تجرى حركة الا انتهى اليه أمرها على الفور .. ولا تكتب رسالة أو تصل رسالة الا قرأها فى الحــال .

وقد علم بما كان من اهتداء باكارا الى ماهنالك من صلة قربى بين أسرتى دى سالاندريرا ودى ميلى .

ولقد اتفقت باكارا مع الدوق دى ميلى على أن توفد رسولا من خدمها القوازقيين الى روسيا ليأتى بالاوراق المثبتة لهذا النسب . كما وعدته بأن تكتب الى الدوق دى سالاندريرا تنبئه بالامر .

ولكن روكامبول كان بالمرصاد كما قلنا .

سرق رسالة باكارا الى الدوق دى سالاندريرا .

وقتل رسول باكارا وهو راجع يحمل الوثائق واستولى عليها واخفاها فى داره السرية .

وحرق غرفة الدوق دى ميلى فأتى على الوثائق الاخرى التى كانت باكارا قد أتت بها معها وأودعتها عند صديقها .

وهكذا انعدم كل أثر يثبت أن للدوق دى ميلى صــــلة قرابة بالدوق دى سالاندريرا .

وكان الدوق دى ميلى قد وعد الدوق دى سالاندريرا بأن يحمل اليه الوثائق التى تبرهن على هذه الصلة .. كما أنبأه بأن الكونتس ارتوف قد كتبت اليه فى هذا الشأن .

ولكن رسالة الكونتس لم تصل .

وجاء الدوق دى ميلى ينبىء الدوق الاسبانى بأن غرفته قد احترقت والاوراق فيها .

ثم جاء ينبئه ثانية بأن الرسول القوزاقى قد قتل وان الوثائق سرقت .

وايقن الدوق دى سالاندريرا ان فى الامر خدعة .

وكان قد انتهى اليه فى ذلك الوقت نبأ الفضيحة التى لوثت الكونتس ارتوف . وكان قد علم انها كانت فى ماضى أيامها من بنات الهوى فلم يعد لديه شك فى أن هناك مؤامرة واسعة النطاق . وان صلة القربى المزعومة ليست الا مزورة ملفقة .
أخذه الغضب فبعث الى الدوق دى ميلى بخطاب يشف عن السخط وطلب اليه فى صراحة أن يكف عن زيارته بعد اليوم .
وكان هذا هو ما يرمى اليه المركيز دى شامرى أى روكامبول

***

على ان أندريا كان يخشى تدخل باكارا ومبادرتها الى نجدة الدوق دى ميلى . فثابر على المكيدة التى دبرها ليصرف أنظارها عن هذا التدخل .
فظلت ريبيكا - اختها غير الشرعية - تستقبل رولان دى كلاييه فى دارها السرية وهى تزعم عنده انها هى الكونتس ارتوف .
واتفق يوما أن رجع الكونت ارتوف من رحلته فى سويسرا فمضى الى النادى ليزور أصدقاءه القدماء .
وفطن الى أنهم يتغامزون عليه ويرمونه بنظرات تنطوى على الاحتقار .
وقد وقف يتحدث الى رولان دى كلاييه فلقيه هذا فى قحة وجرأة .
وعجب الكونت ارتوف للامر وراح يسائل نفسه عن السر .
وفيما هو جالس حمل أحد الخدم رسالة الى رولان .
وكان روكامبول قد زور فى الرسالة خط باكارا .
وتلا رولان الرسالة وزوج المرأة التى يعشقها على قيد خطوات منه وأسرع الكونت فابيان فاختطف الرسالة وأحرقها خشية أن يراها الزوج الروسى فى يد غريمه .
ولما انصرف الحاضرون حانت من الكونت ارتوف نظرة الى الارض فرأى المظروف .
وعرف فى عنوانه خط زوجته .
واحتدم غيظا وثارت فى عروقه دماء الشرف . وانطلق فورا الى زوجته ينبئها بما عرف .
وقالت باكارا :
- لاشك انك واهم .! اقسم أنى لم ار رولان ولم اكتب اليه منذ كنا فى المانيا وانقذنى من حادث الغرق . واكبر ظنى انك تخيلت هذه النظرات الهازئة .
- وهذا الغلاف ؟.
- لست أنكر أنه شبيه بخطى .. ولكنى لم اخط منه حرفا .

ومع ذلك فلدى اقتراح
ـ تكلمى
يمكنك أن تدعو رولان الى تناول الشاى غدا ولك اثناء وجوده أن تراقبه لتتبين حقيقة مسلكه نحوى فان رأيته محتشما فاعلم أنه اذن يحب امرأة خطها يشبه خطى .
واذعن الكونت ارتوف لرأى زوجته .
ولكن روكامبول كان يقظا لاتغفل له عين .
بعث الى رولان برسالة مزورة عن لسان باكارا تنبئه بشكوك زوجها وبأنه سيدعوه الى تناول الشاى وتطلب اليه أن يظل طيلة الوقت مثالا للاحتشام حتى لايثير غضب زوجها .
وبعد نصف ساعة وصلت الى رولان دعوة الشاى التى خطتها باكارا الحقيقية .
وذهب رولان فى الموعد المضروب .
وجعل الكونت ارتوف يرقبه بعين نفاذة . فلم ير فى سلوكه مايثير الريبة .
واذ انصرف قال الكونت لزوجته :
ـ لقد ظلمنا هذا الشاب . انى لم أر منه طيلة الوقت بادرة من سوء السلوك .! لاشك انه يحب امرأة أخرى يشبه خطها خطك .!

ـ ٦ ـ

فى اليوم التالى لهذا الحديث مضى الكونت ارتوف الى مشرب الشاى وجلس فى احدى المقاصير .
وفى المقصورة المجاورة كان بعض أصدقاء رولان دى كلاييه يتبادلون الحديث .
وسمع الكونت مايدور بينهم .
كانوا يتحدثون عن تلك الخدعة التى جازت على الكونت . وكيف أن زوجته بعثت الى عشيقها برسالة تطلب اليه أن يعتصم بالاحشام فى حضرة زوجها حتى لاتداخله الريبة .
واذ سمع الكونت هذا الحديث انطلق من فوره الى صديقه الحميم الكونت فابيان وقص عليه ماسمع . وقال :
ـ انك ياصديقى رجل شريف . وانى أثق بكلامك .! فاستحلفك بشرفك أن تصدقنى القول . هل امراتى خائنة .! اذا أجبتنى بنعم أرسلت شهودى على الفور الى رولان دى كلاييه حتى دون أن أسألك دليلا .
وأطرق فابيان برهة وقد اخذته الحيرة .
وعاد الكونت يقول :
ـ أستحلفك بشرفك أن تتكلم !

ورفع فابيان رأسه وقال فى صوت حزين :
— سيدى الكونت .! ارسل شهودك الى رولان .
وصاح المسكين صيحة ألم وغمغم فى حزن :
— رباه .! أهذا صحيح .؟
فقال فابيان :
— لقد رأيتها بعينى راسى بين ذراعيه ..!

***

لم يذهب الكونت ارتوف الى داره وانما بقى فى بيت فابيان وبعث الى زوجته برسالة يقول فيها :
« الآن لم يعد لدى شك فى انك عشيقة رولان دى كلاييه . وقد دعوته الى المبارزة . ولا بد أن يموت احدنا .. فاذا قضى على بالحياة رحلت الى روسيا . وكان هذا آخر العهد بيننا »
وفى الوقت ذاته وصلتها رسالة من رولان ينبئها فيها انه سيبارز زوجها ويقول :
« ولكنى سأقتله وأحميك من قسوته وبطشه »
وخرت باكارا مغشيا عليها .
هذا زوج يؤكد لها أنه أيقن من خيانتها .
وهذا شاب يحدثها بحديث العشاق وهى لاتكاد تعرفه .
واقبلت سيريز — أخت باكارا — تنشق أختها الاملاح المنعشة بحتى اذا أفاقت قالت باكارا :
— أقسم انى لم أر رولان الا مرتين احداهما كانت فى حضرة زوجى . فكيف يجسر على أن يبعث الى بهذه الرسالة ..! لاشك أنه مأجور لتشويه سمعتى . فمن يكون هذا العدو الرهيب الذى دفعه الى ذلك ..؟
فقالت سيريز :
— هيا بنا اليه لنتبين جلية الامر
وكانت باكارا طيلة الطريق شبيهة بامرأة فقدت عقلها ..!ووقع فى روعها ان رولان زور خطها لغرض فى نفسه
وقالت سيريز :
— الزمى أنت المركبة ريثما أتحدث اليه أنا فانك شديدة الانزعاج .
وصعدت سيريز الى رولان وقالت له :
— اننى أخت باكارا ..! وهى بالباب ..!
فهتف فى ابتهاج :
— حمدا لله ..! انها اذن لاتزال على قيد الحياة ..! لقدخشيت أن يقتلها ..!

فقالت سيريز .
ـ ما معنى هذا الكلام ياسيدى ..! ان أختى لاتعرفك ..!
ـ لاتعرفنى ..! لقد ظننت أنها أطلعتك على سرها ..!
ودعت سيريز أختها .
وبسط رولان ذراعيه وهم بأن يعانق باكارا . ولكنها دفعته من صدرها وصاحت :
ـ بأى حق تعانقنى ياسيدى ..؟
ـ بحق الحب .!
ـ أى حب . .ومارايتك من قبل سوى مرتين ..،
فبدت على وجهه امارات الدهشة . ثم استنارت ببصيرته فقال :
ـ آه .. فهمت .. عفوا ياسيدتى .. لقد ظننت فى أول الامر ان أختك مطلعة على سرى .
فقد وقع فى روعه أن باكارا انما أنكرت معرفته أمام اختها درءا للفضيحة .
ولكن باكارا ابتدرته بقولها :
ـ سيدى .. أرجوك أن تحدق فى وجهى ..! هل انا تلك المرأة التى تعشقها ..؟
فحدق فيها برهة ثم قال :
ـ ان عين المحب لاتخطىء ياسيدتى ..!
وخرت باكارا مغشيا عليها .
ولما أفاقت جعلت تقول :
ـ سيدى .! لقد لوثت سمعتى بالعار والفضيحة .!.
انك تحب امرأة تشبهنى ..!
وتوسم رولان الصدق فى لهجتها . فقال :
ـ سأزورك ياسيدتى هذا المساء لنتحدث فى الامر حتى نجلو الحقيقة .
على أنه ما كاد ينصرف حتى طرق روكامبول الباب .
كان يتوقع كل هذا فجاء يفسد الامر بلباقته .
وحدثه رولان بما كان . وبالشكوك التى داخلته .
وضحك روكامبول هازئا وقال :
ـ انك يا صديقى لا تزال غرا ساذجا تستطيع المرأة أن تعبث بك .
ـ ماذا تعنى ..؟
ـ أعنى ان باكارا قد خدعتك .

ــ وما غايتها من ذلك ..؟

ــ غايتها أن تمضى الى زوجها فتعتذر اليه قبل المبارزة وتنبئه انك انما أحببت امرأة أخرى شبيهة بزوجته . وتعده بأن تقدم اليه عشيقتك ليستوثق من الحقيقة .

ــ وبعد ..؟

ــ ستمضى أيام وأنت تبحث عن هذه العشيقة .. الموهومة فلا تجد لها أثرا . لأنها هى باكارا بطبيعة الحال . وعند ذلك يعتقد زوجها انك خدعته مرة أخرى . وانك زعمت أنك تحب امرأة شبيهة بزوجته على حين انك لاتحب أحدا على الاطلاق . وانك ما لفقت هذا القول الا رغبة فى تشويه سمعة الكونتس وانك قلدت خطها عمدا . واذ ذاك يأخذه الغضب فيقتلك شر قتلة .

فصاح رولان :

ــ ولكن الى أية غاية ترمى باكارا بهذه المكيدة وهى تحبنى ؟

ــ انها ترمى الى أن تثأر لنفسها منك بعد أن شوهت سمعتها وأذعت أسرارها بين أصحابك . وفى الوقت نفسه ستبرهن لزوجها على انها امرأة شريفة . وبذلك لاتخسر ثروته .!

فأطرق رولان برهة ثم رفع راسه وقال :

ــ أصبت .! لقد خدعتنى .! الآن ايقنت أن عشيقتى هى باكارا بعينها وأن لاأثر لتلك المراة التى تشبهها .!

* * *

فى مساء تلك الليلة تناول الكونت ارتوف طعام العشاء فى دار فابيان .

وفى ذلك الطعام قدم اليه روكامبول اى المركيز دى شامرى شرابا زعم انه يساعد على تهدئة الاعصاب والنوم حتى يستيقظ مبكرا فى الصباح متأهبا للمبارزة .

وجرع ارتوف الكاس التى قدمها اليه روكامبول . [illegible] درى انه قد مزج بها سم هندى يفضى الى الجنون بعد [illegible] اثنتى عشرة ساعة على تناوله .

وحرص اندريا على أن يكون موعد ظهور عوارض [illegible]ون للمرة الاولى فى موعد المبارزة .

وحانت الساعة المضروبة .

وتناول الكونت ارتوف مسدسه وقال فى لهجة [illegible]

ــ سيدى .! ان ماحدث اهانة لايجدى فيها [illegible] ولا بد لاحدنا أن يقتل خصمه .

فقال رولان :

ــ هذا صحيح .

وهنا بدأت عوارض الجنون فقال ارتوف :
ـ ولكنى ياسيدى رجل جبان اخشى الموت ولهذا اتقدم اليك معتذرا اطلب الصفح .
ودهش رولان والحاضرون وقال أحد الشهود :
ـ ماذا تمنى .؟
فقال الكونت ارتوف مخاطبا رولان :
ـ انى أعتذر اليك ياسيدى الكونت ارتوف .،
فقال رولان مقاطعا :
ـ اننى أدعى رولان دى كلاييه ياسيدى الكونت .!
فقال الكونت :
ـ بل انا رولان دى كلاييه ! وانت الكونت أرتوف !.. انى اعرفك حق المعرفة ..! وامرأتك شريفة لم ترتكب اثما ..! عفوا ياسيدى الكونت ارتوف .
وادرك الحاضرون ان الكونت ارتوف قد جن ..؟
ذهب العار بعقل الزوج المسكين ..!
وهكذا تحقق مايرمى اليه روكامبول .
شغلت باكارا بأمر زوجها ورحلت معه الى سويسرا لتعالجه ؟ ولم تعد تفكر فى مساعدة الدوق دى ميلى على الزواج من ابنة الدوق دى سالاندريرا .

ـ ٧ ـ

خلا الجو امام روكامبول .. تخلص أولا من منافسه الدون جوزيه ..
ثم تخلص من منافسه الثانى الدوق دى ميلى .
ثم تخلص اخيرا من سطوة باكارا وتدخلها .
وبعد ذلك لم يكن ينقصه الا أن يقضى على الدوق دى ميلى قضاء مبرما ..
وما كان روكامبول ـ او استاذه أندريا ـ من الحماقة بحيث يقتل دى ميلى قتلا ، فيثير مصرعه الشبهات ، ولكنه دبر الأمر ببراعة وحكمة .
لقح الجواد المحبوب الذى يؤثره الدوق بجرثومة مرض فتاك هو « الجمرة الخبيثة » وفى نفس الوقت وخز الدوق بدبوس ملوث بهذا الميكروب .
فلما ظهرت اعراض الداء القاتل على الدوق لم يقل أحد أن الداء اقحم عليه اقحاما . وانما قيل انه انتقل اليه من جواده المصاب ومات الدوق دى ميلى دون أن تحوم الشبهات حول موته .

وقال اندريا مخاطبا تلميذه :
ــ ان من الحماقة يابنى ان تبقى على احد ممن يعرفون سرك .!
إنك الآن تدعى المركيز دى شامرى . وقد استخدمت فى مكائدك فانتير . ومدام فيبار وزامبا . فيجب أن تقتلهم جميعا . فقد يشى بك أحدهم فى يوم من الايام .
ودبر روكامبول الامر .
دعا اليه زامبا واغراه بقتل فانتير .
ودعا اليه فانتير واغراه بقتل مدام فيبار .
ودعا اليه مدام فيبار واغراها بقتل فانتير .
وكان فى دار مدام فيبار قبو مملوء بالماء ، ورفع روكامبول اللوح الخشبى الذى يسد فوهة القبو .
وفى جوف الليل حضر فانتير الى الدار ليقتل مدام فيبار .
واذ اجتاز عتبة الدار هوى فى القبو .
وكان زامبا فى انتظاره فى جوف القبو وقد وقف على درج السلم واذ حاول فانتير الصعود عاجله زامبا بطعنة اردته قتيلا .
ومال روكامبول الى مدام فيبار يقول :
ــ تعالى يا اماه .. انظرى !.. لقد مات الخائن ..!
واذ وقفت فوق فوهة القبو اطبق على عنقها بيديه حتى خنقها ثم دفعها الى القبو .
وهكذا .. بلا رحمة او شفقة .. قتل المراة التى اتخذته ابنا لها .. المراة التى كفلته وهو صغير شريد ..!
وهتف به زامبا وهو فى جوف القبو :
ــ لقد انتهت مهمتى .!
فقال له روكامبول :
ــ اصعد اذن .!
وصعد زامبا .
واذ بلغ حافة القبو كان روكامبول فى انتظاره .
تلقاه بطعنة بين كتفيه فانقلب وهوى الى الماء وهو يصرخ متوجعا
وهكذا قضى روكامبول على اعدائه وخصومه جميعا .. قتل منافسيه فى الزواج .. وقتل أولئك الذين يخشى ان يفشوا سره .
قتل الدون جوزيه .. وفاتيما عشيقة النورية ...
وقتل الدوق دى ميلى .
وقتل فانتير وزامبا ومدام فيبار .
وانزل الجنون بالكونت ارتوف . وشغل به زوجته باكارا .
وقتل رسول باكارا الذى اتى بالوثائق المثبتة لصلة القربى القائمة بين الدوقين دى ميلى ودى سالانديرا .

وخلا الميـــدان من الأعداء والمنافسين . ولم يبق أمامه الا أن يتزوج الفتاة التى يطمع فى ثروتها ..

***

وفى ذلك الوقت كانت أختـــه بلانش قد دعت الدوق دى سالاندريرا الى قصرها الريفى للصيد والقنص وهناك جعلت تذلل العقبات وتمتدح اخاها المركيز دى شامرى .

وقال لها الدوق :

ـ اكتبى اليه اذن ان يحضر اذ لامانع لدى من أن ابارك له هذا الزواج .

وتلقى روكامبول الرسالة .

وطار بها فرحا .

لقد تحققت أمانيه . تحقق هذا الزواج الذى سفك فى سبيله دماء كثيرة وازهق ارواحا كثيرة .

ومضى بالرسالة الى أستاذه اندريا .

وما سمعها اندريا حتى اغرورقت عيناه المفقوءتان بالدموع .!

كان يحب تلميذه كأنه ابن له .

وشد على يده وهو يرتعد .

وقال اندريا « كتابة طبعا » :

ـ هيا يابنى تأهب للسفر . واصحبنى معك .

فقال روكامبول فى استغراب :

ـ ولمـاذا تريد أن ترافقنى .؟

ـ لأمهر وثيقة الزواج بتوقيعى .! ان قلبى يحدثنى أن الحظ لايحالفك الا اذا كنت فى رفقتك .!

وأطرق اندريا برهة ثم رفع رأسه وفى سمات وجهه امارات الجد والحزن وقال :

ـ روكامبول .! اعلم يابنى اننى انا النور الذى يضىء نجمك فان انطفأ هذا النور خمد نجمك .!

وفى صباح اليوم التالى رحل الرجلان الى القصر الريفى ..

ودبر أندريا الأمر بحيث يستهدف الدوق دى ســالاندريرا أثناء الصيد لخطر الموت لهجوم وحش عليه .. واذ ذاك يخف روكامبول الى نجدته ..

وتمت الرواية طبقا لهذا التدبير المحكم .

هجم الوحش على الدوق وأوقع جواده وبقر بطنه ثم تحفز للوثوب على الدوق نفسه .

وفى لحظة الموت الحرجة انبرى روكامبول للنجدة ..

جرد خنجره وانقض على الوحش وان هى الا لحظات حتى سقط الوحش مضرجا بدمائه
ونجا الدوق دى سالاندريرا .
ورفع الدوق رأسه وقال :
ــ بنى .. ليس لى من الذكور من يرثنى القابى ! فكن انت هذا الابن المنشود !. غدا تتزوج ابنتى !. وتصبح ابنا لى . وينتقل اليك لقب الدوقية وثروتى .
وفى صباح اليوم التالى حضر المسجل الى القصر .
تحررت وثيقة الزواج واخذ الحاضرون يذيلونهابامضاءاتهم .
وقال روكامبول يخاطب الحاضرين :
ــ انكم تعلمون ان هذا البحار الأعمى «مشيرا الى أندريا» قد انقذنى من الموت فاحببته كأنه ابى .. ولهذا يسعدنى أن أراه يذيل وثيقة الزواج بامضائه .
وتناول اندريا القلم .
وانهمرت الدموع من عينيه .
وأخذ يكتب امضاءه
ومن عجب .. ان هذه اليد التى لم ترتعد يوما وهى تغمد الخنجر فى القلوب قد ارتعدت الان وهى ممسكة بالقلم !.
فقد كان اندريا يحب روكامبول كأنه ابن له !

ــ ٨ ــ

فى الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه الحوادث فى ذلك القصر الريفى كانت باكارا فى طريقها الى باريس وفى رفقتها الكونت ارتوف .
لقد أقامت اياما فى سويسرا والاطباء معنيون بزوجها . ولكن دون ان تبدو عليه بوادر الشفاء . كان جنونه على عهده قويا . فما زال يتخيل انه هو رولان دى كلاييه ..
واتفق أن رآه ضابط انجليزى فراقب مظاهر جنونه
وعلى غير معرفة تقدم الى باكارا يقول :
ــ سيدتى .. اسمحى لى أن اتحدث اليك فى شان زوجك! لقد خدمت طويلا فى بلاد الهند . فعرفت ان فيها سما هنديا من تناوله أصيب بالجنون .. ومن الغريب انى ارى ان عوارض جنون زوجك شبيهة بعوارض هذا السم الهندى
فقالت باكارا :
ــ هذا عجيب !.
ــ اعاش زوجك فى بلاد الهند يا سيدتى ؟

ـ انه لم يزرها مطلقا .
ـ اله اصدقاء من الهنود ؟.
ـ كلا
ـ عجب .. اذن من اين له هذا السم ؟..
ـ اموقن انت يا سيدى ؟
ـ كل اليقين !
ثم انشا يحدثها عن طبيب يدعى الدكتور صامويل يقيم فى باريس ويعتبر حجة فى السموم الهندية وفى معالجة الجنون .
وقال :
ـ اذهبى يا سيدتى الى هذا الطبيب .. وقصى عليه امر زوجك . فان عجز عن شفائه فلن يشفيه أحد سواه
ومن اجل هذا غادرت باكارا سويسرا . وجلست فى القطار تتعلل بالرجاء وهو ينهب بها الارض صوب باريس

***

وفى هذا الوقت بعينه كان رولان دى كلاييه متجها الى محطة باريس بغية الرحيل الى الارياف
وفى الطريق لقى عشيقته القديمة ريبيكا ، أو باكارا كما كان يظن .
وحيته فى ابتسامة لم تبق لديه شكا فى غرامها به . فايقن انها انما انكرته امام أختها درءا للشبهات .
ووثبت ريبيكا الى احدى المركبات وصاحت بالحوذى فى صوت مرتفع :
ـ ١٧ شارع باسى .!
وكررتها .. وابتسمت لرولان . فادرك انها تدعوه الى اللحاق بها .
ولكنه آثر ان يمضى الى المحطة اذ كان مضطرا الى الرحيل لامر يتعلق بارث آل اليه ..
على انه ما كاد يدخل الى المحطة حتى رأى باكارا الحقيقية تهبط من القطار وفى رفقتها زوجها الكونت ارتوف
أدركه الذهول وكاد يجن ..!
منذ لحظات رأى باكارا تصعد الى مركبة فى قلب باريس
فكيف يراها الآن تهبط من القطار قادمة الى باريس ؟..
وأسرع الى مراقب القطار وقال له :
ـ اترى هذه السيدة ؟
ـ انها الكونتس ارتوف
ـ اكانت فى القطار .

ـ نعم .. انها قادمة من الحدود !.
ـ أموقن أنت ؟
ـ كل اليقين .! فأنا الذى وضعت حقائبها على الرف
واستقل رولان مركبته وطار بها الى المنزل رقم ١٧ بشارع باسى .. ذلك المنزل الذى سمع باكارا الكاتبة تذكره للحوذى ..

وفى الطريق جعل يتدبر الأمر ، ويقلب الرأى على وجوهه المختلفة .

لم يعد لديه شك فى ان الكونتس ارتوف كانت على حق حين اكدت له انه انما يحب امراة تشبهها وان هذه المرأة انتحلت اسمها لغرض ما .

ودخل رولان على ريبيكا وهو يغالب شعوره ..
وفى صوت هادىء جعل يحييها ثم قال :
ـ وأين زوجك الان يا كونتس ؟
ـ فى سويسرا
ـ ومتى يعود الى باريس ..؟
ـ هذا رهن بمشيئة الاطباء
فضحك رولان فى استخفاف وقال :
ـ هذا عجيب ..! لقد رأيت زوجك الان فى محطة باريس
فقالت دون ان يبدو عليها أى أثر للانزعاج :
ـ أصحيح هذا ..؟ اذن رأى الاطباء ان يرسلوه الى باريس ولكن اما كان ينبغى ان يخطرونى بالامر لاستقبله
فقال رولان فى هدوء :
ـ يلوح لى انك ناسية .. لابد انهم اخطروك فقد رأيتك الان فى رفقته ..! وانبأنى المراقب انك قدمت معه من الحدود ..!
وامتقع وجه ريبيكا .
وصاح رولان فى صوت صارم :
ـ لا داعى للمراوغة ..! لقد عرفت الحقيقة ..! انك كاذبة مدعية ..!
ثم أطبق على عنقها وصاح :
ـ والآن قصى على الحقيقة والا قتلتك !.
وتكلمت ريبيكا ..
قالت ان رجلا قد استأجرها خصيصا لهذه الغاية ودفع اليها مالا كثيرا لكى تنتحل شخصية باكارا وكان يقدم اليها الرسائل المزورة فتبعثها الى رولان .
وقال رولان بعد أن فرغت من قصتها :

ـ ومن هذا الرجل ؟
ـ هذا مالا أعلمه .
فاطبق على عنقها مرة أخرى فصاحت : صوت مختنق !
ـ اقسم انى لا أعرفه ! .
وكانت بادية الصدق فتخلى عنها رولان .. ولكنه صاح بها :
ـ والآن اذهبى معى الى دار الكونتس ارتوف وقصى عليها هذا الحديث .
وبعد ساعة كانا فى دارها .
وتكلمت ريبيكا مرة أخرى .
وعرفت باكارا الحقيقة .. هناك اذن عدو خفى رهيب يدبر المكائد .. عدو يريد أن يقضى على سمعتها ويلوث بالعار شرفها .
فمن يكون هذا العدو الرهيب ؟ .
ذلك هو السؤال الذى لم تجد له جوابا .
وتحولت الى رولان قائلة :
ـ ومن الذى يحمل اليك رسائلى المزعومة ؟ .
ـ خادمى ..
ـ وأين هو ؟ .
ـ لقد سرقنى وفر هاربا .
ـ وكيف استخدمته ؟ . من الذى أوصاك به ؟ .
ـ صديقى المركيز دى شامرى .
ـ انه رجل شريف .. وشهادته فوق مظان الريب والشكوك .

* * *

ومضت باكارا الى زيارة الدكتور صامويل .
واذ قصت عليه أمر زوجها وفحصه لم يعد لديه شك فى أن جنونه انما نشأ عن ذلك السم الهندى الذى أشار اليه الضابط الانجليزى .
وقال :
ـ ولكنى أعلم عن يقين ان هذا السم الهندى لا يوجد عند أحد فى أوربا سواى .. فلا ريب أن الذى دسه لزوجك سرقه منى أو جاء به من الهند مباشرة .
وأسرع يزن كمية السم التى لديه من هذا النوع فألفاها تنقص عشرين جراما .
استولت عليه الدهشة ودعا خادمه وسأله فى ذلك .. واقسم الرجل على براءته .
وكانت لهجته بادية الصدق ..

وقال الطبيب :

ــ ولكن مما لا ريب فيه أن هذا السم سرق .. فهل ترتاب في أحد ؟ .

وفكر الخادم برهة ثم قال :

ــ سيدى .. أتذكر ذلك النبيل الذى زارك يوم أصيب الخادم الاسباني بمصادمة أمام باب دارك .

ــ نعم .. نعم .. ما شأنه ؟ .

ــ لقد أسرعت الى اسعاف الخادم الاسبانى وتركت النبيل وحده على مقربة من خزانة السموم .. وقد كانت مفتوحة .

فقال الدكتور صامويل مقاطعا :

ــ كفى هراء .. انه من أشرف الناس ! .

فقالت باكارا متسائلة :

ــ من تعنى ؟ .

ــ المركيز دى شامرى ! .

واتسعت حدقتاها .

المركيز دى شامرى هو الذى أوصى رولان دى كلابيه بذلك الخادم الذى كان يحمل اليه الرسائل المزورة .

والمركيز دى شامرى هو الذى كان عند خزانة السموم وحده .

فهل يكون هو السارق ؟ ! .

هناك علاقة وثيقة بين هذا المركيز وبين الخادم .

وهناك علاقة بينه وبين السم المسروق .

فهل يكون هو ذلك العدو الخفى الذى دبر هذه المكائد ؟ .

ولكن ما شأنه حتى يحقد على باكارا هذا الحقد الشديد ! .

وقال الدكتور صامويل :

ــ ثقى يا سيدتى اننى سأشفى زوجك مادام جنونه من تأثير هذا السم .. على انى لن اكون طبيبا فحسب .. وانما سأكون عونا لك على اماطة اللثام عن سر هذه المكائد .

وقصت عليه باكارا قصة شبيهتها ريبيكا وكيف اساءت الى سمعتها ..

فقال الطبيب :

ــ ولكن من يكون هذا العدو الخفى ؟ .

ــ هذا مالا أعلمه ! . كل ما اعرفه من أمره أنه مضى بريبيكا الى دار له فى اول ليلة التقى بها .

وذكرت عنوان هذه الدار ..

وما سمع الطبيب هذا العنوان حتى صاح :

ـ هذا عجيب ! . هذه دار المركيز دى شامرى ..
فصاحت باكارا :
ـ المركيز دى شامرى ! . وكيف عرفت ؟ .
ـ لقد دعانى لأعالج بحارا مفقوء العينين مقطوع اللسان مشوه الوجه ..
ـ صفه لى ! . صفه لى ! ..
فلما وصفه لها صاحت :

ـ انه اندريا ! . انه اندريا ! . وكل هذا من تدبيره ! . لابد لى أن ارى المركيز دى شامرى اذ لا ريب عندى انه روكامبول متنكرا !
ومضت الى دار المركيز فقيل لها انه قد سافر الى قصره الريفى وفى رفقته الدوق دى سالاندريرا .
ودعت باكارا اليها رولان دى كلاييه وانبأته بشكوكها وقالت :

ـ فارجوك ان تكتم كل هذا ! . دع الناس على اعتقادهم فى .. دعهم يظنون اننى انا عشيقتك .. اذ لا أريد أن اظهر الحقيقة الآن .. وانما اريد قبل كل شىء أن اطهر سمعة هذه الفتاة التى توشك أن تتزوج لصا وقاتلا ..!
ـ وعلام عولت ؟ .

ـ على الرحيل فى اثر المركيز وأنا متنكرة فى ثياب الرجال حتى اراه عن قرب ..

* * *

وفى خلال ذلك كانت باكارا قد علمت بحادث مصرع مدام فيبان وفانتير .. اما زامبا فقد وجد حيا ولكنه كان مطعونا بخنجر .. وقد أصيب بالجنون الناجم عن الرعب .

وتولى الدكتور صامويل علاج زامبا .. فلما شفى قص على باكارا جميع المكائد التى دبرها المركيز دى شامرى .. وكيف انه قتل الدون جوزيه ثم الدوق دى ميلى بأن وخزه بدبوس ملوث بميكروب الجمرة الخبيثة .

واذ فرغ زامبا من قصته قالت باكارا فى صوت رهيب :
ـ اقسم أنى سأثأر وانتقم .. وسأحول دون زواجه بهذه الفتاة الشريفة ..

وارتدت ثياب الرجال واستقلت مركبة وفى رفقتها رولان دى كلاييه وقد عزمت على أن تفضح هذه المكائد .

في الوقت الذي جرت فيه هذه الحوادث في باريس كانت الحوادث قد تطورت في القصر الريفي على النحو الذي ذكرناه والذي انتهى بأن صادق الدوق دي سالاندريرا على أن يزوج ابنتـه من المركيز دي شامري .

ودعى المسجل فدون وثيقة الزواج وذيلت بترقيعات الشهود ومن بينهم اندريا .

وتم الاتفاق على ان تقام حفلة الزفاف في مساء اليوم التالي .

* * *

في الليلـة التي دونت فيها وثيقـة الزواح قال روكامبول في نفسه :

ـ ما اسعدني !. لقد تحققت الامنية التي أصبو اليها . والتي في سبيلها ازهقت أرواحا وسفكت دماء . غدا أتزوج ابنة الدوق .

ـ وبعد سكتة قصيرة قال في نفسه :

ـ ولقد قتلت أعدائي جميعا ! . لم يبق هناك من يعرف سري غير استاذي أندريا .

واخذته الرعدة اذ ذكر هذا .

أيقتل أندريا ! . أيقتل ذلك الذي أعانه كما يعين ابنه ! . ذلك الذي كان الرأس المدبر والعقل المفكر .

وقال في نفسه :

ـ ولكن تلك هي مشورة اندريا !. ألم يوصني بأن اقتل كل من يعرف سري ! . نعم .. انه يحبني .. ولـكن ما يدريني انه سيقيم على هذا الحب ! .

وفي جوف الليل طرق باب أندريا وقال له :

ـ ان الحر شديد .. وقد أصابني الأرق فهيا نتجول في الشرفة برهة ونتبادل الحديث .

وفي الشرفة دفع اندريا من فوق الحاجز وهو يقول :

ـ يجب أن يموت كل من يعرف سري .. وغدا سيظنون انك أخطأت الطريق لفقدك البصر فسقطت في الهاوية .

وفي تلك اللحظة قصفت الرعود وابرقت السماء .

وعلى وميض البرق أرسل روكامبول بصره الى قاع الهاوية .

وهناك .. على الصخور رأى جثة استاذه مهشمة محطمة ! .

وذكر فجأة قول اندريا :

ـ أنا النور الذي يضيء نجمك .. فان انطفأ هذا النور خمد نجمك ! .

واخذته الرعدة فستر وجهه بيديه وصاح وهو يرتجف :
ـ رباه ! . انى خائف ! . (١)

القسم الأول

ـ ١ ـ

بعد شهرين من هذه الحوادث كانت هناك مركبة بريد تسير في نحو الساعة الخامسة صباحا على طريق اورليان بمقاطعة تورين وقد اشرفت على قرية « ج » فلم تكن تفصلها عنها الا ثلاث مراحل .. وهى قرية صغيرة فيها ادارة للبوليس وتقع على حدود ضيعة « اورانجيرى » مقر أسرة آل دى شامرى .

وكان فى المركبة رجلان عهدناهما فيما مر بنا من الحوادث وهما الفيكونت فابيان دامول والمركيز فريدريك البرت اونوريه دى شامرى .. اى بطلنا روكامبول ..

ولقد عهدنا روكامبول منذ شهرين ذلك المغامر الجرىء المتألق النظرات .. الحاسم الضربات الذى يدبر المكائد ببراعة منقطعة النظير .. ذلك الشاب الفتى الذى تناول بيد ثابتة القلم فوقع به وثيقة زواجه بالآنسة دولوريس كونسبسيون دى سالاندريرا .. واقام ينتظر حفلة الزفاف فى اليوم التالى وعلى شفتيه ابتسامة عامرة بالرجاء وفى قلبه مطامع لا حدود لها ولا انتهاء ..

ولكن روكامبول الذى شهدناه الآن فى المركبة ـ بعد شهرين من الحوادث الآنفة ـ كان رجلا آخر ! .

كان ممتقع الوجه بادى الشحوب شارد النظرات تنعقد بين حاجبيه خطوط تنذر بما يكابد من هموم وما يعتمل فى صدره من احزان .

لم يكن هناك ريبة فى أن حزنا طاغيا جارفا يفترس قلبه ويوشك ان يورده موارد التلف والهلاك .

وكان يدير فيما حوله نظرات مكتئبة كأنما تمل الحياة وتستعذب الموت .

واخذ الفيكونت فابيان بيد المركيز الحزين وضغطها فى رفق وقال :

ـ ألا تعلم يا عزيزى البرت أن أمرك يحزننى ويخيفنى ؟ .

ـ أنا ؟ .

---

(١) لمن شاء من القراء ان يقف على تفاصيل هذه المكائد الرهيبة الطريفة التى أشرنا اليها فى هذه المقدمة أن يرجع الى رواية روكامبول السابقة المسماة : « مغامرات روكامبول » ..

نطق روكامبول بهذه الكلمة في صوت مضطرب وحاول أن يبتسم فجاءت ابتسامته وانية مغتصبة .
ثم عاد يقول :
ــ أمري يحزنك ويخيفك ؟ .
ــ بلا ريب .
ــ وكيف ؟ .
ــ هذا الحزن الذي يفترسك منذ شهرين ؟ :
فهز كتفيه في غير مبالاة وقال
ــ ليس اهون من ان اعلل لك الامر .
ــ ولكنني لا اشاطرك رأيك .
ــ انك تعلم إني أحب دولوريس ..
ــ فليكن ! . انك ستتزوجها بعد ستة أسابيع .
فهز روكامبول راسه وقال :
ــ اني متشائم .. وتخالجني وساوس مقبضة للنفس .
ــ أمرك يدهشني يا عزيزي البرت . انك تضطرب كما يضطرب الاطفال .. وكأني بك لم تعد رجلا يجالد الصعاب ويكافح الأقدار .
فغمغم روكامبول في صوت ملؤه الرعب .
ــ الأقدار ! . أرجوك .. لا تردد هذه الكلمات في مسمعي فانها تخيفني وتذهب برشادي ! .
فقال فابيان وقد أحزنه امر صاحبه .
ــ كنت أحسبك يا أخي أشد صلابة وأكثر شجاعة من هذا ! .
لقد كنت من أسعد الناس .. وكان زفافك الى من تحب يوشك أن يعقد في اليوم التالي .. ولكن شاءت الصدف السيئة ان يرجأ الأمر فترة من الوقت .. فما الذي يذهب برشادك ؟ .. لولا هذه الصدفة المنحوسة لكنت الآن ــ ومنذ شهرين ــ زوجا لابنة الدوق دي سالاندريرا ولكن كيف كان ممكنا ان يعقد الزواج وفي القصر جثتان . جثة الدوق نفسه وجثة ذلك البحار الاعمى المسكين الذي ضل طريقه في الشرفة فسقط الى الهاوية من فوق السياج . فكان مستحيلا ان يعقد الزواج في مثل هذه الظروف المنحوسة .
واذ ظل روكامبول صامتا استطرد فابيان يقول :
ــ ان دولوريس تحبك .. هذا أمر لا شك فيه .. ولكن لم تكن هناك مندوحة من ارجاء الزواج تبعا للتقاليد الاسبانية ..
وها انت ذا تتلقى رسالة منهـا كل يوم مذ حلت مع أمها بقصر دي سالاندريرا عقب وفاة الدوق ..

فقال روكامبول فى صوت حزين :
ـ لست انكر انى اتلقى منها رسالة كل يوم ..
ـ اذن فما الذى يحزنك ؟ . انى اراك مهموما ارقا يجافيك النوم .. فلم هذا ؟ . ولست اكتمك يا صديقى انه مرت بى أيام انا واختك بلانش نتدبر امرك وقد خشينا ان يدركك التلف .. بل لقد خشينا أن يصيبك الجنون .. فما خطبك ؟ .
ـ انى اتعذب ! ..
ـ وما الذى يثير هذا العذاب وقد اوشكت ساعة الهنـاء أن تدق .
ـ من يدرى ؟ .
وكانت هاتان الكلمتان ناطقتين بافجع مشاعر الحزن .
وادار اليه الفيكونت بصره وقال :
ـ الا ترى انك مغرق فى الهواجس ؟..
ـ انا ؟ ـ كلا ؟ .
ـ ولكنك سعيد هانىء ! .
وسكت روكامبول هنيهة ثم قال :
ـ اصغ الى .. ألا تعلم انى امضيت حياتى فى بلاد الهند .. بين أقوام لا يؤمنون الا بالخرافات والأوهام ! . فلقد انتقلت الى العدوى وصرت مثلهم اومن بالوساوس .
ـ هذا جنون ؟ .
واسترسل روكامبول قائلا .
ـ فى تلك الليلة المفجعة التى سبقت موت الدوق دى سالاندريرا ومصرع صديقى البحار الأعمى المسكين ولتر برايت حلمت حلما غريب ..
ـ قصه على اذن .
ـ ما كدت اسلم عينى للنوم حتى استيقظت فجأة على حركة الى جوارى فرايت على كثب منى رجلا يرتدى ثيابا بيضاء وقد جلس على حافة فراشى .. فعرفت فيه على الفور البحار ولتر برايت .. ولكنه لم يكن ذلك الأعمى المشوه الوجه .. وانما كان ولتر برايت الذى عرفته فيما مضى .. كان وسيما باسما ينظر الى بعينيه الزرقاوين اللتين تفيضان اخلاصا .. واقترب منى الشبح وقال :
ـ الآن وقد ادركنى الموت جئتك لأطلعك على خفايا المستقبل .
ثم أومأ بأصبعه الى السماء .. وبين قطع السحب المتناثرة رأيت نجمة لامعة .. وتألقت هذه النجمة برهة ثم غشيها ظل من الظلام .. وانحدرت الى الافق فابتلعتها الظلمات .

وقال الفيكونت فابيان يسأله :
ـ وأية أهمية لهذا الحلم ؟ .
ـ هذه النجمة التى انطفأت هى نجمة حياتى !.
ـ يا للجنون ! .
ـ وأكاد أوقن من أننى لن أتزوج دولوريس !..
فابتسم الفيكونت فابيان وقال :
ـ لو لم تكن عاشقا يا صديقى لقلت انك مجنون ! لو لم يمت الدوق لكنت الآن زوجا لابنته .. ولكن أعصابه فيما يظهر لم تحتمل صدمة انقضاض الوحش عليه أثناء الصيد حين خففت أنت الى نجدته فأماتته الصدمة فى اليوم التالى .. ومع ذلك فدعنى أؤكد لك أن دولوريس ستصبح المركيزة دى شامرى بعد شهرين على الأكثر .
فتنهد روكامبول وقال :
ـ أسأل الله أن يحقق هذا الرجاء ..
ثم أشرق وجهه وقال مسترسلا :
ـ شكرا .. لقد استطعت أن تهدىء بعض مخاوفى .
ـ لقد أوشكت ساعة الانتظار أن تنتهى .. ولكن تذرع بالصبر وحاول أن تروض أعصابك على الهدوء .
ـ أعدك بذلك يا صديقى .. ولكن هل تطول اقامتنا فى قصر أورانجيرى ؟ ..
فقال فابيان مجيبا :
ـ الحق انى ما جئت بك الى هذا القصر الريفى الا نزولا على نصح طبيبك .. ولكنى تذرعت بالعمل حتى لا أعود منك بالرفض .
فضحك روكامبول وقال :
ـ اذن فقد خدعتنى ! .
ـ لم يكن هناك مفر من ذلك .. فقد أمرنى الدكتور صامويل حرصا على صحتك بأن أمضى بك الى الأرياف لا سيما وانك لم تزر هذا القصر مذ عدت من بلاد الهند .
فأخذ روكامبول بيد فابيان وشد عليها فى رفق وهو يقول :
ـ شكرا لك يا فابيان .. لقد أصاب الطبيب ! . لابد لى من هذا التغيير لكى أصرف هذه الهواجس التى تعتمل فى صدرى .. وسأنتظر ساعة الزواج فى اطمئنان وصبر .
ـ أتعدنى بذلك ؟ .
ـ وعدا لا أحنث فيه ! .
وأرسل فابيان بصره من النافذة وهو يقول :

ـ اين نحن الآن يا ترى ؟ ..
وحذا روكامبول حذوه .
كانت الطبيعة فى هذا الوقت فتانة خلابة .. وقد ازدهرت الازهار والورود . ونمت النباتات ونضجت الثمار . وبدا الريف فى حلة تفتن البصر .
وظل الرجلان يديران الطرف فى هذه المناظر السحرية فترة من الوقت .
وفجأة كفت المركبة عن المسير .. واستدار الحوذى يقول :
ـ يستحيل علينا يا سيدى أن نتقدم خطوة أخرى .
فقال روكامبول فى استغراب .
ـ ولماذا ؟ .
ـ لأن الشوارع غاصة بالجمهور .. اذ سينفذ حكم الاعدام بعد خمس دقائق .
وارتعد روكامبول اذ سمع كلمتى « حكم الاعدام »
وقال فابيان :
ـ فهمت ! . لقد كنت أحسب هذا الزحام بسبب موسم من المواسم .
وجعل الفيكونت والمركيز يرميان بالبصر عبر الطريق .
وهناك على قيد مائة متر منهما رأيا المقصلة منصوبة باسطة ذراعيها الحمراوين كأنما تتهيأ لاستقبال الفريسة .. وقد التف الناس حولها يثرثرون ويضجون وقد أخذهم الانفعال .
وأمر فابيان الحوذى بالتراجع فاعتذر اليه هذا باستحالة الأمر لاحتشاد الناس حول المركبة وأن لا مفر من البقاء حتى ينتهى تنفيذ الاعدام .. فقال فابيان :

ـ يا له من منظر فظيع ذلك الذى سنرغم على مشاهدته .
أما روكامبول فانزوى فى ركن من المركبة وقد اشتد شحوبه حتى لا يقع بصره على آلة القصاص العادل .. فقد كان منظرها ـ منذ صغره ـ يبعث فى قلبه أشد مشاعر الرعب
وسمع روكامبول حديثا يدور بين امرأة ورجل يقفان على كثب من المركبة .
قالت المرأة :
ـ أن التنفيذ سيتم فى الساعة السادسة .
فقال الرجل يسألها :
ـ وما هى الجناية التى اقترفها ؟ .
ـ قتل امرأة كانت قد تبنته واتخذته ابنا لها ..!

ـ يا للنذل ! .
ـ كانت عجوزا محطمة .. ومع ذلك لم يرحمها ولم يبقَ عليها .. خنقها ثم القاها فى النهر .
ـ وكم عمره ؟ .
ـ ثمانية وعشرون عاما ! .
وأخذت روكامبول رعدة شديدة .. لقد ذكر الجريمة التى اقترفها .. ألم يقتل مدام فيبار ؟ . تلك التى تبنته واتخذته ابنا لها ! . خنقها وألقاها فى القبو الممتلىء ماء .
وارتفعت الأصوات تقول :
ـ ها هو ذا القاتل ..!
وشوهد شاب يسير بين حراسه مضعضعا مضطرب الخطى وقد أطرق برأسه ووجهه شاحب شحوب الأموات .
وأغمض الفيكونت فابيان عينيه وجعل يصلى من أجـل تلك الروح التى ستزهق بعد لحظات .
أما روكامبول فمضى يتابع الفتى بنظراته وهو يرتعد ارتعادا شديدا كأنما هو المحكوم عليه بالاعدام .
وصعد الشاب الى المنصة .
وجرده الجلاد من ثيابه .
وارتفع سكين المقصلة .. ثم هوى على عنق الفتى فتدحرج رأسه فى السلة .
أما روكامبول فقد تهالك فى مكانه وقد أغمى عليه .
ضاعف هذا المشهد من هواجسه .. ترى هل انطفأت النجمة .. وهل قدر له أن يكون هذا مصيره ؟ .

ـ ٢ ـ

والآن لندع المركيز دى شامرى فى اغمائه فى مركبته ولنعد الى باريس .. ولنرتد الى الوراء بضعة أيام .
فى ذات مساء . وفى نحو الساعة التاسعة .. كانت الكونتس أرتوف فى دارها فى شارع لابيبنير تتحدث الى الدكتور صاموئيل الذى أبرأ زامبا من جنونه والذى يتولى علاج زوجها .
وكان الاثنان صامتين تلوح على وجهيهما أمارات القلق والانفعال وفجأة قالت باكارا :
ـ اتعلم يا عزيزى الدكتور انه قد مر شهران كاملان مذ سافرت وأنـا فى زى الـرجال الى فرانش كونتيه وفى رفقتى رولان دى كلاييه ؟
ـ أعلم هذا يا سيدتى .

ـ ومع ذلك فقد بررت بوعدك فى اخلاص فلم تسألنى أن أجلو لك امرا ..

ـ هذا صحيح .. فان رغباتك عندى أوامر مقدسة ! . الم تسالينى أن ألوذ بالصبر حتى تتحدثى الى من تلقاء نفسك ؟ .

ـ الحق يا دكتور أنه لم يكن لى مناص من هذا التكتم وأنا الذى خبرت الكثير من الدسائس والمكائد .

فقال الدكتور :

ـ وهل حانت اليوم ساعة العدول عن هذا التكتم ؟ .

ـ نعم .. ومن أجل هذا دعوتك الى مقابلتى لأفضى اليك بما لتوق الى معرفته .

ـ انى مصغ اليك يا سيدتى ..

وأنشأت باكارا تروى قصتها فقالت :

ـ تعلم انى اتخذت زى الفتيان فكنت أبدو كأنى شاب فى الثامنة عشرة وكنت أزعم طول الطريق أنى سكرتير لمسيو رولان دى كلاييه وقصدنا الى قصر الشيفالييه دى كلاييه الذى يقع على مرحلة ونصف من قصر هوبا الذى أقام فيه الدوق دى سالاندريرا وابنته وروكامبول وأخته بلانش وزوجها الفيكونت فابيان .

وقد قمت بهذه الرحلة دون ان أعقد العزم على سلوك خطة معينة وما كنت فى الواقع أبغى الا شيئا واحدا هو أن أرى المركيز دى شامرى لاعتقادى أنه هو روكامبول متنكرا .

وفى أول ليلة هبطت فيها تلك القرية قلت لرولان :

ـ ينبغى يا صديقى أن تمضى الى زيارة مسيو دامول .

فأجابنى رولان بقوله :

ـ ولكن العلاقات قد فترت بيننا مذ حادث مبارزة الكونت ارتوف .

ـ فليكن .. يمكنك أن تزعم انك انما جئت تزوره لانجاز بعض الاعمال المعلقة بينكما .

ـ أصبت .. فقد اشترى عمى قطعة أرض منه ولم يؤد ثمنها بعد ..

ـ امض اذن الى لقائه .

ـ ولأية غاية ؟ .

ـ ستصحبنى معك بصفتى سكرتيرا لك . وبذلك تتاح لى فرصة أرى فيها المركيز دى شامرى ..

ـ ولكنه سيعرفك حتما على رغم تنكرك .

ـ انه لن يرانى .. وسأنزوى فى ركن منعزل ومنه أراه دون ان يقع بصره على .

وكان رولان يطيعنى طاعة عمياء رغبة منه فى أن يكفر عن تلك الاساءة البليغة التي ألحقها بسمعتى وشرفى .. فلم يتردد فى أن يحقق رغبتى وقال :

— ومتى أمضى الى زيارته ؟ .

— صباح الغد .

وفى صباح اليوم التالى انطلقنا الى قصر هوبا .. وفيما نحن فى الطريق اليه التقينا برجل من حراس الصيد يعرف رولان حق المعرفة فأقبل عليه يحييه وهو يقول :

— أهذا أنت يا مسيو رولان ؟ . الحق انه فاتك صيد عظيم .

— أى صيد ؟ .

— أول أمس .. فى الوادى الاسود .. وقد حضره مسيو دامول وصهره المركيز دى شامرى .. وكان فى رفقتهما دوق اسبانى .. وكانوا يصطادون الدببة .

— ومن الذى أصاب فى الصيد ؟ .

— المركيز .. والحق انه موفور الجرأة عظيم الشجاعة .

ومضى الحارس يقص على رولان دى كلاييه حادث الصيد حين انقض الدب على الدوق فانبرى المركيز وعاجله بطعنات قوية أردته قتيلا .. وقال مسترسلا :

— ويلوح أن الصدمة أثرت على أعصاب الدوق فمات فى مساء تلك الليلة بعينها .. ولم يكن هناك مناص من ارجاء الزواج .

— أى زواج ؟ .

— زواج المركيز بابنة الدوق .

— وهل كان موعد هذا الزواج قريبا ؟ .

— نعم .. كان موعده اليوم .

وما سمع رولان هذه الكلمات حتى استولى عليه الانفعال .. فلولا الحادث الفجائى لتم زواج ابنة الدوق دى سالاندريرا من لص سفاك ورأى أن ليس ثمة ما يدعوه الى الذهاب الى قصر هوبا فما دام الزواج قد أرجىء فليست هناك حاجة بى الى مشاهدة المركيز .. ففى الوقت فسحة كبيرة يمكننى فى خلالها أن أدبر خطتى على وجه محكم .. وآثر أن يعدل عن الزيارة وأن يعود الى بهذا النبأ .. وقد جاءنى قبيل الظهر بساعة يقص على الأمر .

وقد ذكر لى رولان ما سمع وقال :

— ان أهل القصر قد غادروه جميعا ذاهبين الى الكنيسة .. ولعل لذلك علاقة بموت الدوق .

وفيما هو فى طريقه الى مقابلتي التقى بطبيب من معارفه آكد له ما سمعه من حارس الصيد وقال :
ــ لقد دعيت الى قصر هوبا .
ــ ولماذا ؟ .
ــ لقد حلت نكبة أليمة .. أصيب الدوق دى سالاندريرا بنوبة
ــ وهل استطعت أن تنقذه ؟ .
ــ كلا .. لقد وصلت بعد فوات الوقت .. لقد مات الدوق من تأثير الصدمة .
وراح الطبيب يروى لرولان تفاصيل الحادث فقال :
ــ فى نحو الساعة الحادية عشرة مساء أصيب الدوق بنوبة حادة ..
ــ وهل خف أهله وأصحابه الى نجدته ؟..
ــ كلا بكل أسف .. فانهم لم يعلموا بما أصابه الا فى الصباح حين دخلوا عليه .
ــ أكان خادمه هو الذى دخل عليه ؟ .
ــ كلا .. بل المركيز دى شامرى .. لقد دخل على الدوق ليوقظه فألفاه جثة هامدة .
وبعد سكتة قصيرة استطرد الطبيب يقول :
ــ ولقد قابلت المركيز المسكين فوجدته شديد الشحوب اذ لم ينم ليلته أيضا .
ــ ولماذا ؟ .
ــ لأنه يعشق ابنة الدوق ويهيم بها غراما .. وكان المزم قد استقر على اقامة حفلة الزفاف فى الصباح فظل أرقا يترقب هذه السعادة المنشودة ولكنه ما كاد يدخل على حميه حتى صرخ مستنجدا .. كان الدوق طريحا على الارض فى وسط المخدع وهو غائب عن الصواب .. ويظهر أنه أذعرته النوبة .. فأراد أن يزايل فراشه ليدق الجرس فهوى ميتا .
فقال رولان :
ــ يا لها من نكبة مفجعة ! .
فاسترسل الطبيب قائلا :
ــ ولكنك مع ذلك لم تعلم من نبأ النكبة الا نصفه .
ــ عجبا ! . وهل هناك بقية ؟
ــ نعم .. فقد كانت فى القصر جثتان لا جثة واحدة .
فصاح رولان فى ذهول :
ــ ماذا تقول ؟ ! .

ـ أقول انه مات فى القصر رجلان فى ذلك اليوم .
ـ كيف هذا ؟.
ـ الأول هو الدوق دى سالاندريا .
ـ والثانى ؟ .
ـ رجل انجليزى .
ـ من يكون ! .
ـ بحار أعمى استصحبه المركيز معه ..
وكان الطبيب يعنى ذلك البحار الذى عالجه الدكتور صامويل محاولا أن يشفيه من تشوهات وجهه . أى ذلك الشيطان أندريا .
وقال رولان :
ـ أتعنى ذلك البحار ولتر برايت ؟ .
ـ هو بعينيه ! .
ـ أمات ؟ .
ـ نعم .
واذ بلغت باكارا من قصتها الى هذا الحد استرسلت مخاطبة الدكتور صامويل :
ـ وقد قص طبيب القرية على رولان ما انتهى اليه من نبأ ذلك البحار الاعمى .. وكيف انهم عثروا على جثته فى الصباح مهشمة على صخور وادى الموت الذى يمتد تحت شرفة قصر هوبا . فنقلوا الجثة الى القصر .. وأيقن أصحابه أن الاعمى المسكين خرج ليلا يتجول فى الشرفة فأخطأ طريقه واجتاز الحاجز فسقط الى الهاوية .. وما كاد القوم يحملون الجثة الى القصر ويراها المركيز دى شامرى حتى ساوره ألم شديد فانقلب الى الارض غائبا عن الوعى .. وقد عذبته ذكرى هذا البحار الذى كان يحبه كأنه أبوه
وقال رولان متسائلا :
ـ ولكن كيف وقعت هذه النكبة ؟ .
ـ ألم أقل لك أن هذا الانجليزى كان ضريرا ؟ . وان غرفته متصلة بالشرفة ؟ .
ـ وهل حاجز الشرفة منخفض الى هذا الحد ؟ .
ـ نعم .. انه منخفض جدا .
فغمغم مسيو دى كلاييه قائلا
ـ هذا عجيب ؟ . جثتان فى يوم واحد ! .
ـ ولكن تلك هى الحقيقة يا سيدى .
ـ انى أصدقك ! .
وصافح الطبيب رولان وانصرف .. فأسرع هذا الى مقابلتى وروى لى هذه الأنباء العجيبة .

لقد جئت أسعى الى قصر هوبا لأرى المركيز حتى أحول دون الزواج ان كان هو روكامبول متنكرا .. وها قد تداخلت الأقدار بيدها الرحيمة فى اللحظة الاخيرة فأرجأت الزواج .. وهذه المهلة لا يمكن أن تقصر عن شهرين أو ثلاثة .. اذ ليس معقولا أن يتم الزواج عاجلا .. وجثة الأب لا تزال دافئة تحت التراب .

ولما روى لى رولان ذلك استصوبت الأمر ووجدت انه أحسن صنعا بما فعل .. واستبشرت خيرا .. فما دامت الأقدار قد انحازت الى صفى تناصرنى فلم يعد لدى شك فى انى سأنتصر على روكامبول .

ولما فرغ رولان من قصته قال :

ـ والآن علام عولت يا كونتس ؟ .

فأجبته :

ـ عولت على ألا أصنع شيئا ..

ـ وكيف هذا ؟ .

ـ لقد كفتنى الأقدار مئونة العمل .. وغدا نرحل .

ـ الى أين ؟ .

ـ الى باريس

ـ دون أن تقابلى المركيز ؟ .

ـ لن أقابله فى الوقت الحاضر على الأقل .

ـ انى لم أفهم ما تعنين ..

ـ اصغ الى يا صديقى .. لقد قص علينا الخادم الاسبانى ذاميا ما فعله المركيز دى شامرى وما أقدم عليه من مكائد ودسائس .. فهل تعتقد ان المركيز وهو من أنبل أسرات باريس يمكن أن يقدم على هذه الجرائم ؟ .

ـ كلا بالطبع .

ـ اذن فالرجل الذى يزعم أنه هو المركيز دى شامرى لابد أن يكون أفاقا مدعيا .

ـ هذا لا شك فيه .

فقلت له مستطردة :

ـ وهذا معناه أن المركيز دى شامرى الحقيقى موجود ؟ .

ـ ضبعا ..

ـ اذن علينا أن نهتدى الى المركيز الحقيقى لكى يفضح المركيز المدعى الأفاق .

ـ هذا رأى سديد .

ـ ولكى نحقق هذه الغاية لابد لنا من الوقت .. وقد أتاح لنا

ارجاء الزواج الوقت الذى ننشده .

ـ تلك اذن فرصة طيبة .

على أن رولان دى كلاييه أرادنى على أن أرى المركيز دى شامرى قبل عودتنا الى باريس فدعا اليه الحطاب الذى اعتاد أن يتردد على القصور القائمة فى تلك الأنحاء وقال له :

ـ اسمع يا جان .. ان سكرتيرى يريد أن يذهب الى قصر هوبا .. ولكنه سيمضى اليه متنكرا فى ثياب الفلاحين حتى لا يعرفه أحد .. وغايته من ذلك أن يرى بعض من فى القصر دون أن يروه .. فهل يمكنك أن تمهد له السبيل الى هذا ؟ .

ـ بكل تأكيد يا سيدى ..

ـ على أن تقسم على الكتمان التام ؟ .

ـ أقسم يا سيدى .

ـ أشكرك .. فى صباح الغد يمكنك أن تحضر مبكرا فتجد سكرتيرى فى انتظارك .

وقد سرتنى هذه الخطة التى وضعها رولان .. اذ كان محتملا ـ على رغم كل ما حدث ـ أن يكون هذا هو المركيز دى شامرى الحقيقى وأن تكون اقامته فى الهند قد أفسدت طباعه وخلقت منه ذلك المجرم الرهيب .

ـ ٣ ـ

أمسكت الكونتس عن الحديث برهة ثم استطردت قائلة :

وفى صباح اليوم التالى استيقظت مبكرة وكنت على أهبة الاستعداد ، واذ دخل على رولان ألفانى مرتدية ثياب الفلاحين فأدهشه تنكرى وما ملك ان صاح صيحة الاعجاب ، والحق يا عزيزى الدكتور ان من كان يرانى فى هذه اللحظة لم يكن لتداخله ريبة فى أنى ريفى من صميم الفلاحين ، ولقد صبغت شعرى ووجهى مبالغة فى التنكر وألصقت بموضع الحاجبين شعرا كثيفا أسود اللون ، ووضعت فوق رأسى قبعة عريضة الحوافى ..

وبعد ساعتين كنت مع الحطاب جان على كثب من قصر دامول ..

وكان أول شخص التقينا به فى طريقنا خادما عجوزا لدى أسرة دامول يدعى الأب انطوان ..

وما رأى انطوان الحطاب جان حتى أقبل عليه يحييه ويقول :

ـ لقد جئت يا صاح فى أسوأ الأوقات ..

فقال جان فى دهش واستغراب :

ـ حقا .. ماذا تعنى ؟..

ـ أعنى اننا عائدون الآن توا من المقبرة ..

ـ ومن واريتم التراب ؟..

ـ جثتان ..

واشتدت الدهشة بجان وعجب كيف يوارى القوم جثتين فى ساعة واحدة ، فقص عليه الأب انطوان ماكان من وفاة الدوق دى سالاندريرا ومصرع البحار الأعمى الذى سقط فى الهاوية .

وقال مسترسلا : ومع ذلك فاننا لم ندفن الا جثة واحدة .

ـ جثة من ؟ ..

ـ جثة البحار الأعمى ..

ـ والثانية ؟ ..

ـ سترسل الى اسبانيا لتوارى التراب فى أرض الوطن .. وقد تولى الطبيب تحنيطها بالأمس .. وغدا سترحل الدوقة وابنتها الى اسبانيا يصحبهما سيدى الفيكونت .. وجثة الدوق طبعا ..

وحيانا جان وانصرف على حين تابعنا سيرنا الى القصر ..

وقد مضينا الى المطبخ فوجدنا الخدم وقد احتشدوا فيه فقدمنى جان اليهم على اعتبار انى ابن عمه ، فأصبنا من الطعام حاجتنا ، وجعلنا نتبادل الحديث ، وفى خلال ذلك جعلت أستدرج الخدم وأتحرى منهم عما أشاء دون أن يفطنوا الى محاولاتى ..

وقد علمت ان الدوقة دى سالاندريرا وابنتها قد لاذتا بغرفتهما ورفضتا أن تستقبلا أحدا .. وكانت أصوات نحيبهما وبكائهما تسمع صادرة من الجناح المخصص لهما ..

ولقد انضمت اليهما الفيكونتس داmoul وأبت أن تفارقهما .

وقد علمت أن المركيز دى شامرى كان على أسوأ حال ، فقد نالت منه هذه الميتة المزدوجة وأثرت فى أعصابه تأثيرا شديدا . فانطلق من القصر هائما على وجهه وهو شارد النظرات كأنما يوشك أن يصاب بالجنون ..

وقد استطعت أيضا أن أحصل من الخدم على معلومات هامة ذات شأن ، اذ علمت انهم سيوارون الأعمى التراب فى الساعة الثامنة وانهم سيمضون به الى المقبرة فى تابوت غير مغطى .. وسيظل طيلة الطريق مجرد الوجه ، وقد وضعت جثته فى احدى قاعات القصر حتى تحين ساعة تطهيرها بالماء المقدس .

وقال جان :

ـ أيمكننا يا ترى أن نشاهد الجثة ؟..
فقالت ماريون الطاهية :
ـ هذا ممكن طبعا .. ولكنى لا أنصحك بأن تفعل ..
ـ ولم لا .. ؟
ـ حتى لا يدركك الخوف ..

فضحك جان هازئا وقال :
ـ انى لست ممن يخافون الأموات ..
ـ ولكنك ستخاف هذا دون سواه ..!
ـ ولم ؟.. أهو دميم الوجه ؟..
ـ الى أقصى حد ممكن ..
وقال أحد الخدم :
ـ هذا الى أن جثته قد تمزقت لسقوطها على الصخور ..
ـ اذن فقد تشوه ؟..
ـ لم يبق منه سليما الا وجهه .. فقد سقط على ظهره ..
فقالت الطاهية :
ـ ولكن وجهه كان مشوها مخيفا حتى قبل أن يموت ..
وما سمعت هذه الكلمات حتى ارتعدت اذ رأيت أندريا مشوه الوجه وهو يساق الى السفينة ..
وقال جان يخاطبنى :
ـ انى ماض لأرى الجثة ، فهل تحب أن ترافقنى يا ابن العم ؟
فنهضت واقفة دون أن ألقى اليه جوابا ..
وقالت الطاهية :
ـ الجثة فى الغرفة الصفراء فاذهب اليها وحدك فما كنت لاصحبك ..
ـ انى أعرفها ..
وسرت فى أثر جان الى الغرفة الصفراء التى أفردت للبحار الأعمى فى حياته فلما أدركته المنية نقل اليها حتى يوارى القبر ،
وعند عتبة القاعة وقفت جامدة مسمرة القدمين ..
كانت الجثة الملطخة بالدماء ملفوفة فى أقمشة بيضاء وقد وضعت على الفراش معقودة الذراعين على الصدر ..
والى جانبها كانت الشموع موقدة ..
وعلى منضدة قريبة اناء مملوء بالماء المقدس ..
وهناك عند قائمة السرير كان القس راكعا يصلى ويتلو الصلوات التى تقال فى مثل هذه المناسبات ..

وتقدم جان الى التابوت وقبعته فى يده ، ورطب يده بالماء المقدس ونثره على الجثة ..
ثم نظر اليها .. وارتد على عقبيه مذعورا ..
واقتربت بدورى من الجثة وأرسلت اليها بصرى ..
وخيل الى أننى أرى شبحا ..
فما كانت هذه الا جثة عدوى القديم : سير ويليامز أو أندريا.

* * *

أخذت بذراع جان وغادرت الغرفة وقد شملتنى رعدة جارفة وفى الدهليز قلت له فى صوت منخفض :
ـ ستوارى الجثة التراب الساعة الثامنة ..
ـ نعم .. فبهذا أنبأنا الأب انطوان ..
ـ انى أريد أن أساهم فى تشييع الجثة الى مقرها الأخير .
ـ كما تشاء ..
وكانت غايتى من ذلك أن أرى وجه المركيز دى شامرى وأن اتحقق من انه روكامبول .. وان كنت فى الواقع فى غير حاجة الى هذا الاستيثاق ..

ولم يكن لدى شك فى ان المركيز سيرافق الجثة الى المقبرة اذ ما كان ليتخلف عن مرافقة ذلك الرجل الذى كان يزعم للناس انه أنقذه من الموت وانه بمثابة الأب العطوف ..
وقد صح ما ذهبت اليه ، ففى الساعة الثامنة صباحا جاء الكهنة وتلاميذهم ، وتأهب القوم للمسير الى المقبرة ..
وقبل أن يغادر الموكب فناء القصر جاء رجلان : أحدهما هو الفيكونت دامول والثانى هو المركيز دى شامرى ..
وقد مر الرجلان أمامى ووقفا خلف النعش ..
وكنت اذ ذاك فى وسط رهط من الفلاحين فاستحال على المركيز دى شامرى أن يعرف أن الكونتس ارتوف هو ذلك الفلاح الشاب الذى ينظر اليه خلسة بعين فاجصة ..
وكما تبينت فى الجثة وجه أندريا ـ تبينت فى المركيز دى شامرى وجه تلميذه روكامبول ..

ولم يغب عنى ما قرأت فى ثنايا وجهه من آثار الرعب والخوف والقلق .. وأدركت على الفور ان هذه المشاعر ما ثارت بنفسه الا لأنه هو الذى قتل استاذه ودفعه من فوق سياج الشرفة الى الهاوية ..

لقد أيقن ان النصر دان له .. فلم يعد فى حاجة الى أستاذه وقريحته الجهنمية فأقدم على قتله بلا تردد ..

* * *

انحدر الموكب الى طريق الكنيسة فأشرت الى جان بأن يتبعنى واذ خلوت اليه قلت :

ـ لقد عرفت كل ما أبغى فلنعد الى كلايه ..

واذ بلغت القصر خف رولان الى لقائى وابتدرنى يسألنى عما لدى من الأنباء .. فقلت :

ـ انه هو بعينه ..

ـ روكامبول ؟ ..

ـ نعـــم ..

ـ أموقنة أنت ؟..

ـ وهل تحسبنى ارتبت لحظة واحدة ؟..

ـ وماذا ينبغى أن نصنع الآن ؟..

ـ انك أنت لن تصنـــع شيئا ..

ـ ماذا تعنين ؟..

ـ عليك يا صـــديقى أن تعـــدنى وعدا قاطعا بأن تلزم هذا القصر لا تبرحـــه ، والا تعود الى باريس الا بعـــد أن آذن لك ..

ـ ولـــكن ..

ـ دعنى أتدبر الأمر وحدى .. انى أريد أن اعرف ما لحق بالمركيز دى شامرى الحقيقى ..

ـ اذن فسترحلين يا سيدتى ..؟

ـ نعم .. وفى هذا المساء بالذات ..

وفى ذلك المساء أخذت مركبة البريد الى باريس ..

ـ ٤ ـ

كان الدكتور صامويل يصغى الى ما تقص عليه باكارا وقد أخذه العجب ولذ له أن يسمع التفصيلات الطريفة فهتف يقول :

ـ الحق يا سيدتى أنه لولا تدخلك الـــكريم لظل هذا الأفاق الدعى منتحلا تلك الشخصية ولتزوج هذه الفتاةالنبيلة المسكينة انه شيطان على صورة انسان وقد اشاع الشرور حيث يحل ..

فقالت باكارا :

ـ صبرا يا سيدى الدكتور .. تريث حتى تسمع بقيـــة القصة .. أتظن اننى أستطيع أن أفضح أمره بمجرد تأكدى من

انه هو روكامبول ..؟ كلا ! انه داهيــة أريب ! وفضحه لا يمكن أن يتم بهذه السهولة ..
ان رجلا من طراز روكامبول .. وله جرأته ودهاؤه لا يمكن أن ينتحل هذه الشخصية ولا أن يندمج فى الأوساط الباريسية العادية الا اذا كان قد أخذ من أسـباب الحيطة ما يكفل له أن يظل أمره مكتوما لا يدرى به أحد ..
ولا شك عندى أنه لـكى يصبح المركيز دى شامرى ، قـد أصاب من أوراق اثبات الشخصية ما يؤكد ادعاءه .. ولا شـك أن لديه غير هذا أوراقا أخرى تدعم حجته وزعمه . بل انى أذهب الى ما هو أبعد من هذا فأقول انه لابد قد قتل المركيز الحقيقى حتى لا يتسنى له أن يفضحه فى يوم من الأيام ..
ومن أجل هــذا وجدتنى مكرهة على أن ألوذ بالصمت حتى أدبر أمرى على الوجه الأكمل ..

ولمـا عدت الى باريس مضيت الى زيارة الكونت ارمان دى كرجاز ..
كان الكونت دى كرجاز يعتقد أن أندريا قد هلك فى جزائر استراليا المتوحشة اذ مضى به أعداؤه اليها .. ولم يكد يصدق أنه رجع حيا من تلك البـلاد ، وراح يدبر مكائده ويبث جرائمه متخذا من روكامبول يده العاملة ..
ولمـا فرغت من قصتى وسألته المشورة قال
ــ ما كان أرحم العناية الالهية يا سيـدتى حين تدخلت فى اللحظة الأخيرة فجعلت من وفاة الدوق دى سالاندريا ذريعــة الى ارجاء الزواج .. والا أصبحت ابنته زوجــة لهذا المجرم الشرير الذى بلغ من حماقتنا أن تركناه على قيد الحياة ، ولو أننا قتلناه لمـا كنا آثمين طاغين وهو الذى لوث يده بالدماء البريئة ..
فقلت له :
ــ انى أشاطرك هذا الرأى يا سيدى الكونت ..
ــ وعلينا الآن يا سيدتى واجب واحد هو أن نهتك الستر عن حقيقة روكامبول ، وقد يكون هذا الأمر سهلا هينا ولـكن ينبغى أن لا ننسى اننا فى هذه الحال سنهتك أيضا ستر أسرة شريفة عريقة فى النبل وسننشر فضيحة مفجعة ، وستعلم الدنيــا بأسرها أن ابنة الدوق دى سالاندريا قد أحبت لصــا قاتلا .. أن بلانش دى شامرى قد اتخذت أخا لها سفاكا مجرما ..! بل ان الفضيحة ستمتد شـاملة الى جميع أسرات باريس اذ ليس

فيها الا من اتخذ من روكامبول صديقا !.. وليس من الرحمة ولا من الانصاف أن نحطم قلب بلانش المسكينة بازاحة الستر عن هذه المأساة الأليمة ..

فقلت :

ــ وما العمل اذن يا سيدى الكونت ؟ أظن انه لايسعنا أيضا أن ندع هذا الأفاق يستمتع بلقب المركيز دى شامرى ..

ــ كلا بالطبع .. ولكننا سنحتال على الأمر .. ولكن قبل أن نتخذ أية خطوة عملية ينبغى أولا أن نعرف ما حاق بذلك الذى سلبه روكامبول لقبه ..

وكان الكونت دى كرجاز على حق فيما ذهب اليه ، وشرعنا فى تحرياتنا على الفور ، ونحن أشد ما نكون حرصا على التكتم .. ولكى نعرف ما حل بالمركيز دى شامرى الحقيقى كان واجبا أن نعرف الطريقة التى حضر بها روكامبول الى باريس ..

وبعد يومين من ابتداء تحرياتنا عرفنا أن المركيز دى شامرى المدعى هبط باريس يوم وفاة أمه .. وانه فى اليوم التالى تبارز مع البارون دى شامرى .. كما عرفنا أيضا أن المركيز كان الشخص الوحيد الذى نجا من الموت غرقا يوم غرقت الباخرة لامويت على مقربة من الشاطىء الفرنسى منذ عام ونصف ..

ولما اجتمعت لدينا هذه المعلومات قال لى الكونت ارمان دى كرجاز :

ــ لابد اذن أن روكامبول والمركيز دى شامرى قد اجتمعا على ظهر الباخرة لامويت .. فعلينا اذن أن نستوثق مما اذا كان المركيز قد رجع من بلاد الهند حقيقة على ظهر هذه الباخرة وما دامت الباخرة قد مرت بلندن فهل كان المركيز الحقيقى هو الذى قدم أوراقه الشخصية فى ميناء لندن ؟ والرأى عندى أن نتصل بالأميرالية الانجليزية فهى الجهة الوحيدة التى يمكن أن نستقى منها معلومات موثوقا بها ، بل اننا قد نجد فى مكتب شركة الهند للملاحة بلندن من يعرفون المركيز حق المعرفة .. اذ لاشك أن فيهم من عملوا فى بومباى أو كلكتا من بلاد الهند .. وكان هذا الرأى نعم الصواب ..

واسترسل الكونت دى كرجاز فى حديثه قائلا :

ــ وسنتبين الحقيقة اذ ذاك .. وهى لا تعدو احدى حالات ثلاث : فاما أن يكون المركيز دى شامرى قد شوهد فى لندن ، واما أن يكون قد شوهد على ظهر الباخرة لامويت .. واما أن

يكون قد قتل قبل اقلاعها .. فاذا كانت الحالة الثانية أمكننا أن نتعقب آثاره فى لندن ..
فقالت باكارا :
ـ انى مسافرة من فورى الى لندن ..
فقال الكونت :
ـ وانى مرافقك ..!
ـ أنت .. !
ـ نعم .. ولنرحل صباح الغد ..
وفى الصباح كنت أنا والكونت دى كرجاز فى طريقنا الى انجلترا .. وبعد اثنتى عشرة ساعة كنا فى لندن ..

وذهبنا من فورنا الى دار البحرية الانجليزية ..
وذكر لنا أحد الموظفين القدماء أنه يذكر تماما أنه فحص أوراق المركيز دى شامرى بنفسه منذ سبعة عشر شهرا ..
وذكر لنا ضابط آخر انه التقى بالمركيز فى مكتب الشركة وان بينهما معرفة وثيقة وقد صافحه وتحادثا برهة غير قصيرة.
فقال له الكونت :

ـ هذا معناه يا سيدى انك موقن من أن الشاب الذى تقدم اليك لفحص أوراقه هو المركيز دى شامرى بعينه ؟..
ـ هذا لا ريب فيه .. فاننا صديقان قديمان وقد اشتغلت تحت امرته أكثر من عامين ..
ورجع الضابط الى دفاتره ثم قال :
ـ وثابت لدى من دفترى انه كان فى رفقة الملازم جاكسون وهو من أصدقائه القدماء ..
ـ وأين يمكن أن نلتقى بهذا الملازم ؟..
ـ لاشك أنه فى لندن الآن فقد رجع من الأرض الجديدة منذ ثمانية أيام ، وأعتقد انه نازل فى فندق جين فى ميدان بلجراف ..
وانطلقنا من فورنا الى هذا الفندق فوجدنا الملازم جاكسون نازلا فيه ..

وقد أدهشت أسئلتنا الملازم الشاب وأثارت استغرابه ، ولكنه اطمأن حين عرف أن مخاطبه يحمل لقبا رفيعا ، وقال مجيبا على الأسئلة التى وجهها اليه الكونت دى كرجاز :
ـ لقد عملت أنا ودى شامرى زمنا طويلا ، وكنا صديقين

حميمين .. وقـد رافقته بنفسى الى ظهر الباخرة عند رحيله الى فرنسا ..

ــ أتعرف اسم هذه الباخرة ؟..

ــ نعم .. انها « لامويت » ..

ــ وهل صعدت معه الى ظهرها ؟..

ــ نعم .. ولبثت على الافريز حتى رحلت ..

ــ ألا يحتمل أنه غادرها قبل اقلاعها ؟..

ــ هـــذا محال .. فقد لوحت له بمنديلى وهى تتحـرك وأجابنى بالمثل ..

وكان هذا كل ما نبغى أن نعرف ..

لم يعد لدينا شك فى أن المركيز دى شامرى الحقيقى وصل الى لندن سالمـا ، بل انه صعد الى الباخرة وشوهدت تقلع به فى طريقها الى فرنسا ..

وقال لى الـكونت ارمان دى كرجاز اذ خلوت اليه :

ــ اذن فقـــد كان المركيز دى شامرى على ظهـر الباخرة لامويت .. ولا شـــك أن أوراقه الشخصية سرقت منه اما قبل غرق الباخرة ، واما بعد غرقها ، فاذا كان الفرض الأول فمعناه ان روكامبول كان هو أيضا موجودا بالباخرة ، أما اذا كان الفرض الثانى فمعناه ان روكامبول كان موجودا على الشاطىء الفرنسى عند انقاذ المركيز فاستولى على أوراقه وقتـله .. أو أن البحر لفظ جثة المركيز فجرده روكامبول من أوراقه ..

فقلت :

ــ انى أستبعد الفرض الثانى ..

ــ ولمـــاذا ؟..

ــ لأن روكامبول ليس بالرجل الذى يعود الى فرنسا دون أن يدفعه الى ذلك غرض معين ..

ــ أصبت ..

وكان علينا بعد ذلك أن نتجه فى بحثنا الى ناحية أخرى ..

اتصلنا بادارة البوليس فعلمنا منها ان انجليزيا يدعى سير أرثر كان بين ركاب الباخرة لامويت ، وبالرجوع الى السـجلات وجدنا ان الاوصاف الخاصة بهذا الانجليزى تنطبق على روكامبول الى حـد كبـير .. فلم يعد لدينا شـك فى أنه كان بين ركاب البـاخرة ..

وعدنا الى الهافر على الأثر ، وقام الكونت ارمان دى كرجاز

بتحريات دقيقة واسعة النطاق عن غرقى الباخرة لاموييت .. وأسماء الناجين منها ..
وقال له أحد البحارة الطاعنين فى السن :
ـ لم ينج من الباخرة أحد عند غرقها ، ولكن أهالى اترتا يزعمون أن أحد الغرقى قد نجا وانه سبح الى شاطئهم ..
وتركنا الهافر وانطلقنا على الفور الى اترتا ..
كان قد مضى على هذه الفاجعة أكثر من عام ونصف ، ومع ذلك فلم ينس أهالى اترتا هذه المأساة الأليمة اذ لفظ البحر جميع الجثث عند شاطئهم ..
وقال لنا أحد الأهالى :
ـ انه فى صباح اليوم التالى لغرق الباخرة استطاع أحد الناجين وهو شاب فى ثياب البحارة أن يبلغ الشاطىء سباحة وقد أنهكه التعب وكادت تبتلعه الأمواج ..
وقيل لنا ان هذا الشاب لاذ بأسرة فاتينل التى يحترف أفرادها الصيد ، فذهبنا اليها ، وسألنا عميدها فى ذلك فقال :
ـ نعم .. لقد آويناه وقدمنا اليه طعاما وشرابا ، لكنه كان صموتا كتوما . فقد أبى أن يذكر لنا اسمه ، واكتفى بأن اشترى ثيابا غير ثيابه المبتلة ..
ـ وأين ذهب ؟..
ـ الى الهافر .. فى مركبة الأب بلانكيه ، وقد لاح لنا انه أمضى ليلته فىاحدى الجزر الصخرية التى تقع على ثلاثمراحل من الشاطىء ، وقد سمعنا ان شخصا ثانيا نجا من الغرق .. ولكنه لم يبلغ الشاطىء ..
وأدهشنا هذا النبأ ، وقال الكونت :
ـ ماذا تعنى ..؟
فضحك الأب فاتينل وقال :
ـ تلك قصة عجيبة ..!
قصها علينا اذن ..
واشعل الصياد العجوز غليونه وقال :
ـ بعد غرق «لاموييت» بثلاثة أيام رجعنا من الهافر انا وابنى تونى فى قاربنا الكبير ، وفى طريق العودة التقينا فى عرض البحر بباخرة سويدية ذات ثلاثة أشرعة كانت محملة بالأخشاب وكنا قد أصبنا من البحر صيدا كثيرا ، فرأى ابنى تونى أنيصعد الى ظهر الباخرة السويدية عله يستطيع أن يبيع ربانها كمية من السمك ..

وقد قال الربان يخاطب ابنى :
ـ اذن فقد غرقت احدى البواخر فى هذه الناحية ..
ـ نعم يا كابتن .. وهى الباخرة لامويت ..
ـ ومتى غرقت ؟ ..
ـ منذ ثلاثة أيام ..
ـ فى أية بقعة ..
ـ هناك على مقربة من هذه الصخور ..
ـ وهل كان الغرقى كثيرين ؟..
ـ نعـــم ..
ـ ألم ينج أحد ؟..
ـ نجا شخص واحد وهو رجل فى عنفوان الشباب ..
فابتسم الربان وقال :
ـ اذن فقد نجا اثنان لا واحدا ..
ـ وكيف هذا ؟ ..
وأخذ الربان بيد تونى ونزل به الى مقصورته الخاصة وأراه فى فراشـــه شابا فى السابعة والعشرين من العمـــر ، وكان مستغرقا فى النوم والى جانبه الطبيب يفحصه ..
وقال الربان يسأل الطبيب :
ـ كيف حاله ؟..
ـ أظن ان فى وسعنا أن ننقذه من الموت ، ولـكن أمر شفائه سيطول ، غير أنى أخشى أن يصاب بالعته .
وقد قص الربان على ابنى تونى قصـــة هذا الفتى فقال ان بعض رجاله هبطوا الى احدى الجزر الصخرية ليصطادوا بعض الطيور ، فاتفق وهم يجوسون خـــلال الجزيرة أن رأوا هـــذا الشاب مغميا عليه فى حفرة عميقة ملساء الجوانب لا سبيل الى الخروج منها ، فهبطوا اليه بواسطة الحبال وانتشلوه وعادوا به الى الباخرة منذ ساعتين ..
وقال الربان مستطردا :
ـ ولا ريب ان هذا الشاب نجا من الغرق ولاذ بهذه الجزيرة
فقال تونى مقاطعا :
ـ انها نفس الجزيرة التى لجأ اليها الشاب الثانى الذى نجا أيضا من الغرق .
فقال الربان مسترسلا :
ـ ولاشك أن هذا المسكين سار فى الجزيرة على غير هدى

اثناء الليل فسقط فى هـــذه الحفرة واستحال عليه الخروج فامضى فيها ثلاثة أيام لا يصيب شيئا من الطعـــام حتى أدركه الاغماء جوعا ..

وضحك الربان وقال :

ـ واذا ما استطعت أن أنقذه من الموت ضممته الى زمرتنا وجعلت منه بحارا ، فانى فى حاجة الى رجال ..

واذ بلغ البحار فاتينل من قصته الى هذا الحد قال الكونت دي كرجاز يسأله :

ـ وبعد ذلك تابعت السفينة السويدية رحلتها ؟..

ـ نعم يا سيدى ..

ـ وحملت معها الشاب ؟..

ـ بلا شك ..

ـ أتعرف اسم هذه المركب ؟..

ـ نعم .. انها تسمى «سابل» ..

ـ وهل تحمل العلم السويدى ؟..

ـ نعـــم ..

وضرب الكونت جبهته براحة يده فجأة وقال يخاطبنى :

ـ سيدتى الكونتس ، لقد أثارت هذه الحكاية بعض ذكرياتى القـــديمة ..

ـ وكيف ؟ أية ذكريات يا ترى ؟..

ـ منذ ستة شهور قرأت فى احدى الصحف الاسبانية نبـأ خلاصته ان سفينة حربية اسبانية اعتقلت بالقرب من شواطىء جينيه مركبا تحمل العلم السويدى بتهمة القرصنة ، وقد قبض على بحارة هذه المركب الذين ينتمون الى أمم مختلفة وقـــدموا الى مجلس عسكرى ، وهذه المركب ذات ثلاثة أشرعة ..

ـ وما كان مصير البحارة يا ترى ؟..

ـ لقد حكم عليهم جميعا بالسجن ، الربان وبحارته الأحـــد عشر ..

واذ قال الكونت ذلك دس فى يد الصياد فاتينل حفنة من القطع الذهبية ، وأخذ بيدى وانصرفنا وهو يقول :

ـ ســـيدتى الكونتس .. انى أعتقـــد اننا الآن فى اثر المركيزا دى شامرى الحقيقى ..!

* * *

كانت الكونتس ارتوف مسترسلة فى هذه القصة والدكتور صامويل يصغى اليها فى انتباه شديد كأنما يستمع الى رواية من وحى الخيال ..

ولما بلغت من قصتها الى هذه النقطة قالت :

ـ والآن يجب أن تعيرنى سمعك يا دكتور .. فاننى سأروى لك بقية القصة ، وسأسألك المعونة ..

فقال الدكتور :

ـ لا أحب الى يا سيدتى من أن أهتك ستر هذا المجرم .. فتكلمى فانى معيرك سمعى ..

وأنشأت تتحدث اليه ساعة كاملة ، وقالت تختتم حديثها :

ـ وغدا نقوم بهذه الرحلة معا ..

ـ ٥ ـ

انبثقت أنوار الفجر وكست أشعة الشمس المتوهجة قمم الجبال .. وبدت الطبيعة فاتنة خلابة ، وهى تشرق على البحر المنبسط وقد انتشرت فيه قوارب الصيد ..

وكان ذلك فى مدينة قادس ميناء الأندلس ، بلاد الجمال الطبيعى الذى لا يزال على الفطرة والسليقة ..

وكانت شوارع المدينة مقفرة لا تكاد ترى بها أحدا من المارة وفتح باب أحد المنازل وبرز منه شاب فى الثانية والثلاثين يرتدى ثياب السفر ، وفى رفقته امرأة فتية يشتمل كتفيها وشاح من الصوف الثمين ..

وأخذ الشاب بذراع المرأة وقال :

ـ انه لمنظر جميل يا عزيزتى هرمين أن نشاهد شروق الشمس فوق قمة الجبل ..

فقالت المرأة معجبة :

ـ هذا صحيح . ولقد شهدت هذا المنظر ونحن نعبر الهافر عند بليموث فى العام الماضى ..

فضحك الشاب وقال :

ـ ان الفرق عظيم يا عزيزتى بين جمال البحار الصغيرة وجمال المحيطات الكبيرة ، وشتان بين بحر المانش وهذا المكان .

وما كان هذا الشاب الا صاحبنا فرناند روشيه وزوجته هرمين ..

بعد أن نصب أندريا شراكه حول فرناند روشيه ودفع الى

طريقه تلك الغانية لاتيركواز «الفيروزة» لتسلبه قلبه ـ أدرك المسكين خطأه .. فجاء بزوجته الى بلاد الأندلس ليجدد بين احضان الطبيعة ذلك الحب القديم الذى كاد يذوى ويذبل ..

واسترسل فرناند يقول :
ـ تعلمين يا عزيزتى ان القومندان البحرى الذى يتولى أمر هذه الميناء هو الكابتن بدرو ابن عم الجنرال « ك » الذى اعتاد ان يختلف الى باريس كل شتاء ويدعونا الى حفلاته الراقصة
ـ انى أذكره تماما ..
ـ ولقد أرسلت اليه بالأمس خطاب توصية من ابن عمه الجنرال « ك » ..
ـ وبماذا أجابك ؟..
ـ طلب الى أن أحضر فى رفقتك فى ساعة مبكرة من هذا الصباح لنرى شروق الشمس ، وقد كتمت عنك الأمر حتى افاجئك به الآن ..
ـ ما أكرمك .. ولكن كيف السبيل الى الوصول الى الحصن ؟ أفى قارب من قوارب الصيد ؟..
ـ كلا .. بل فى القارب الذى يملكه القومندان ..
ـ حقا ..! هذا فضل كبير من القومندان ..
وضحك فرناند وقال :
ـ وهل تصرين يا ترى على هذا القول اذا علمت أن البحارة الذين يتولون ادارة هذا القارب انما هم من المجرمين .. ؟
وارتعدت مدام روشيه اذ سمعت هذه الكلمات .. فابتسم فرناند وقال :
ـ اطمئنى يا ابنتى .. فان هؤلاء المجرمين قد انقلبوا الآن عقلاء طائعين ، ولذلك اختارهم القومندان لادارة قاربه ..
وكانا قد بلغا الشاطىء أثناء هذا الحديث فرأيا القارب فى انتظارهما وقد تولاه أولئك البحارة الذين اختارهم القومندان من بين المحكوم عليهم ..
وكان البحارة المجرمون مقيدين بالسلاسل الضخمة حتى لا يفكر أحد منهم فى الفرار ..
وخف الكابتن بدرو الى استقبال فرناند روشيه وزوجته . وبعد التحيات المألوفة أمر بالاقلاع ..
وتحول القومندان الى أحد البحارة المسجونين وقال له :
ـ تول أنت القيادة يا مركيز ..

ورفع البحار يده الى رأسه بالتحية العسكرية وسار الى الدفة دون أن ينطق بكلمة واحدة ..

وكان شابا وسيم الوجه حزين النظرات بادى الشحوب حتى لكأنه يطوى فى قلبه حزنا دفينا ..

وقال أحد المساجين فى صوت منخفض :

ــ ان المركيز موفور الحظ .. ان الكابتن يحبه كثيرا ولست أستبعد أن يتخذه حارسا خاصا له فى يوم من الأيام ..

فقال مسجون آخر :

ــ أسكت أيها الحقود الحسود .. ما شأنك أنت اذا كان الكابتن يؤثره علينا جميعا . ومع ذلك فهو أحق منا بالايثار وهو على ما نعهد من كريم السجايا وحميد الخصال ..

وهز السجين الأول كتفيه وغمغم كلمات غير مفهومة ولاذ بالصمت ..

وكان هذان السجينان يتكلمان باللغة الاسبانية ، وكان فرناند على كثب منهما فسمع حديثهما ولم يفته حرف واحد منه

وتحول فرناند الى زوجته يقول فى صوت منخفض :

ــ ان أمر هذا الشاب يحيرنى .! ما الذى ساقه الى الليمان وهو على ما أرى من الوداعة ورقة الخلق ..

فقالت هرمين :

ــ الحق انى كنت أسائل نفسى فى هذا ..

فضحك القومندان وقال :

ــ ولقد سبقتكما أنا أيضا الى توجيه هذا السؤال الى نفسى حقا .. ؟

ــ نعم .. منذ تسعة شهور توليت أمر هذا الليمان فجىء الى السجن بهذا الشاب محكوما عليه بخمسة أعوام ..

ــ ولأى سبب .. ؟

ــ لقد اعتقل فى مركب سويدية تشتغل بالقرصنة ، وكان مساعدا للربان . وحين ضبطت الباخرة كان بها من العبيد مائتان والنخاسة ممنوعة بحكم القانون ، فقدم الربان ومساعده وبحارته الى مجلس عسكرى ..

فقالت هرمين فى استغراب :

ــ عجبا .. أيكون هذا الشاب الوديع من تجار النخاسة ؟..

ــ نعم يا سيدتى ..

ــ وما جنسيته ؟ ..

- انه يؤكد انه فرنسي .. ولكن لدى من الأسباب مايحملنى على الاعتقاد بأنه انجليزى ..

وضحك الكابتن وقال :

- بهذه الوداعة .. وبما يبدو على وجهه من دلائل الصدق والاخلاص يستطيع أن يكون محتالا من الطبقة الأولى ..

ونظر فرناند وهرمين الى الكابتن فى استغراب فقال هذا مسترسلا :

- ولقد استطاع أن يخدعنى أنا الذى لا يخدعنى أبرع المحتالين ..

- حقا !.. وكيف ذلك ؟..

وأومأ الكابتن الى البحارة وقال :

- تصورى يا سيدتى ان زملاءه لا ينادونه الا بلقب المركيز ..

- وهل هو مركيز حقيقة ؟..

- لقد أراد أن يلقى فى روعى هذا اليقين ، وانها والله لقصة طريفة وسأرويها لكم .

- ٦ -

أشعل الكابتن سيجارة وشرع يروى قصته فقال :

- ما كدت أتولى أمر هذا الليمان حتى أرسل المركيز يطلب الى أن آذن بمقابلته لأمر هام .. ولم أر أن أرفض طلبه فدعوته الى مكتبى ، فجاء يرسف فى قيوده واغلاله ..

وقد ابتدرنى بقوله :

- سيدى الكابتن ، انى أدعى المركيز البرت أونو دى شامرى وقد نلت درجة ضابط فى البحرية الانجليزية ..

ولم أملك عند سماع هذا من أن أصبح دهشا .

واسترسل السجين فى حديثه قائلا :

- لقد ولدت فى باريس ، وهجرت أسرتى وأنا فى العاشرة من عمرى ، ولم أر أحدا منهم بعد ذلك ، ومنذ عام تقريبا وصلت الى لندن فى طريقى الى فرنسا بعد أن استقلت من منصبى فى شركة الهند للملاحة اذ كانت أمى قد بعثت الى بخطاب تدعونى فيه الى الحضور .

ومن لندن ركبت باخرة اسمها لامويت ورحلت على ظهرها فى طريقى الى الهافر ..

واتفق أن ثارت الزوابع فجنحت الباخرة الى جهة صخرية وارتطمت بالصخور وأشرفت على الغرق فوثبنا الى الماء .

وقد اتجهت الى الشاطىء وفى أثرى زميل تعرفت به ونحن على ظهر المركب . وقد كاد يهلك غرقا . لولا انى سارعت اا نجدته فى اللحظة الاخيرة وسحبته من شعره على سطح الماء حت بلغت به جزيرة صخرية قريبة .

وفى الصباح المبكر رأيت باخرة تمر بالقرب من الجزير فأسرعت ألوح لها بيدى وأنا أجرى صوبها .

وشاء سوء الحظ أن تكون عند قدمى حفرة غفلت عنها فسقطت فيها أثناء ركضى واستحال على الخروج اذ كانت جوانب الحفرة ملساء مستقيمة .

وجعلت أصرخ مستنجدا حتى كل صوتى . وأخيرا سمعنى رفيقى الذى أنقذته من الغرق بعد أن أفاق من اغمائه فبادر الى . فأنبأته بما حدث وطلبت اليه أن يأتينى بحبل تركته مع منطقتى على مقربة من الحفرة .

ومضى رفيقى ليأتينى بالحبل لينقذنى . وأقمت انتظره برهة طويلة ولكنه لم يرجع الى .

وأدركنى القلق وتتابعت الساعات حتى هبط الليل .

وكان الجوع والظمأ قد أخذا منى فانتهى بى الأمر الى الاغماء .

ومنذ هذه اللحظة لم أعد أدرى ما أصابنى ولا ما مر بى .

وقد ظللت فى هذا الاغماء فترة لا أدرى طالت أم قصرت حتى اذا استفقت وجدتنى فى مقصورة فى احدى المراكب والى جانبى طبيب يعنى بأمرى ويحاول أن يردنى الى الصواب .

وقد طفقت ألقى على من حولى السؤال تلو السؤال فعلمت أن بحارة هذا المركب عثروا على فى الحفرة وأنا أكاد أموت جوعا فحملونى الى مركبهم .. وقد مرت بى أيام طويلة وأنا فريسة الهذيان والحمى حتى لقد خشى الطبيب أن أصاب بالجنون لفرط ما أصابنى من آلام الجوع والظمأ .

وقلت لمن حولى :

ـ وأين نحن الآن ..!

ـ اننا على كثب من بلاد السنغال .

وأقبل على ربان المركب يقول :

ـ ولما كنا فى حاجة الى رجال من البحارة فقد ضممناك بحارا الى زمرتنا .

وقد عرفت يا سيدى القومندان فيما عرفت أن ربان هذا المركب يشتغل بالنخاسة وانه يجلب العبيد من بلاد السنغال

ونحوها من مواطن الزنوج ويبيعهم الى أصحاب الأراضى والضياع الواسعة .

وقد وجدتنى مكرها على أن أعمل تحت امرة هذا الربان اذ لم يكن ثمة سبيل الى الفرار ولا سيما قد توعدنى بالموت ان حاولت أن أفر هاربا .

ولما كنت قد أمضيت حياتى فى البحار وبلغت مرتبة ضابط فى البحرية الانجليزية . فقد أقامنى الربان مساعدا له لكى ينتفع بخبرتى .

وهكذا يا سيدى القومندان أصبح المركيز دى شامرى مساعد ربان فى مركب تشتغل بالنخاسة ، وهكذا أصبح فيما بعد محكوما عليه بالسجن خمسة أعوام .!

واستطرد القومندان بدرو يروى القصة لفرناند وزوجته قائلا :

ـ ولست أكتمك يا سيدى ان قصة هذا السجين اثرت فى نفسى تأثيرا شديدا اذ توسمت الصدق فى حديثه لوداعته ولما يبدو فى سمات وجهه من النبل والشرف .

وقال السجين مسترسلا :

ـ وقد حاولت أن أسرد هذه القصة للمجلس الحربى الذى تولى محاكمتى ولكنه أبى أن يصغى الى . ولم يصدق حرفا واحدا مما ذكرت

ولكنك أنت يا سيدى القومندان ستصدقنى .. وستكتب الى باريس ولندن ..!

فقلت أجيبه على الفور فى غير تردد :

ـ سأكتب .

فأكب على يدى يقبلها شاكرا .

وقال فرناند روشيه متسائلا :

ـ وهل كتبت .؟

ـ بكل تأكيد .. وفى نفس اليوم .

ـ وماذا كان الجواب .؟

ـ كان أن هذا السجين أفاق مدع ..!

كان المركيز دى شامرى الحقيقى يقيم فى باريس .. ولقد تزوج منذ شهرين بابنة مواطننا الدوق دى سالاندريرا ..

فقال فرناند مغمغما :

ـ ان الأمر يبدو فى الواقع عجيبا جدا

فضحك القومندان وقال :

ـ هذا دائما شأن أولئك المجرمين .! انهم يقدمون فى سبيل الخلاص على كل خدعة تخطر بالبال . وما كان أهون عنده من أن ينتحل اسم هذا المركيز .

وأرسلت هرمين نظرة فاحصة الى السجين المحتال وقالت فى نفسها :

ـ هــــــذا غريب .! ان سمته توحى الى النفس انه مركيز حقيقى ..!

أيكون هذا النبل لمدع أفاق ؟ ! ..

وتحولت الى زوجها وقالت :

ـ فرناند أتريد أن تسدينى منة ؟.

ـ بكل تأكيد .

ـ سل الكابتن ان يأذن لنا بمحادثة هذا السجين عند بلوغنا الشاطىء

ـ سأسأله .!

فابتسمت هرمين وقالت فى صوت منخفض :

ـ من يدرى .! انى أرى فى وجهه من آيات النبــــل ما يكاد يجعلنى موقنة من أنه ليس مدعيا .!

ـ فليكن .! سأحدث القومندان فى هذا الشأن .!

وكانت الشمس فى هذه اللحظة قد بدت جليـــــة فوق قمم الجبال فشغل الحاضرون بمنظرها عن مراقبة هذا السجين الذى يدعى لقب المركيزية .

وفى ذات صباح بينما كان الكونت ارمان دى كرجـاز يتلقى بريد الصباح اذ وجد فيه رســـالة تحمل الطوابع الأســـبانية .. فض الكونت الرسالة فقرأ فى ذيلها توقيع فرناند روشيه فقال فى نفسه فى استغراب :

ـ ليت شعرى ما الذى كتب الى .! لقد سود اربع صحائف كاملة

وتناول الرسالة ومضى يتلوها :

« عزيزى الكونت

« لقد شهدنا معا كثيرا من الفواجع والمآسى . وقد مرت بنا فى حياتنا ألغاز ومعضلات يتوه فيهــا العقل . ولولا ذلك لقلت ان المأساة التى أنا بصددها الآن هى أغرب ما عرفت أو سمعت .

« فأعرنى سمعك يا سيدى الكونت لأروى لك ما عرفت .

« لا شك انك التقيت فى باريس بشاب متأنق الثياب له فى الأوساط الباريسية مكانة عظيمة .

« ان هذا الشاب هو محور تلك المأساة التى سأحدثك عنها
« كان هذا الشاب ضابطا فى شركة الهند للملاحة . وقد هبط باريس منذ أكثر من عام . وفى صباح اليوم التالى تبارز مع البارون دى شامرى وهذا الشاب هو صهر الفيكونت دامول . وهو يدعى المركيز اونوريه دى شامرى .
« ولقد التقيت به منذ ستة شهور قبيل رحيلى الى اسبانيا .
« وقد رأته زوجتى أيضا .
« والآن هل يمكنك أن تتصور يا عزيزى الكونت اننا التقينا هنا فى قادس بشاب يحمل هذا اللقب نفسه ويؤكد انه يدعى المركيز فردريك البرت أونوريه دى شامرى .!
« والغريب فى الأمر .. أن هـــذا المركيز الثاني يؤكد انه خدم فى بلاد الهند وأمضى حياته فى شركة الهند للملاحة حتى حاز رتبة ضابط . وهو يؤكد أيضا أنه ابن الكولونيل دى شامرى . وان اخته هى بلانش دى شامرى التى تزوجت الفيكونت فابيان دامول منذ عام . وهو يقرن هذه المزاعم بتفصيلات عجيبة ودقيقة تلقى فى روع من يسمعه أنه على حق فيما يقول .
« والخلاصة .. أن هناك مركيزين يحملان اسم دى شامرى . أحدهما يقيم فى باريس ويوشك أن يتزوج ابنة الدوق سالاندريرا. أما الثانى فيقيم هنا فى قادس .
« والأغرب من هذا انه يقيم فى الليمان ..!
« أعنى انه محكوم عليه بالسجن خمسة أعوام ..!
« أرجوك يا عزيزى ألا تندهش لما تسمع فان للقصـــة بقيـــة أغرب وأعجب »
وبعد ذلك أخذ فرناند يسرد فى رسالته ما ذكرناه فى صدر هذا الفصل عن الكيفية التى التقى بها بهذا السجين والحديث الذى دار بينه وبين قومندان السجن .
ثم كتب مستطردا :

« ويجب أن أعترف يا عزيزى الكونت بأن زوجتى آمنت بقصة هذا السجين بعد أن رواها لنا القومندان .
قد طلبت الى أن أستأذن القومندان فى أن نستجوب السجين عند وصولنا الى الشاطىء .
« ولما أنبأت القومندان برغبة زوجتى ضحك وقال مخاطبـــا هرمين :
ــ أن رغباتك يا سيدتى عندى أوامر مقدسة . فلك أن تتحدثى الى المركيز متى شئت .

« وقومندان السجن متزوج . وقد دعانا الى تناول الطعام فى داره فى ذلك المساء ليقدمنا الى زوجته

« فلما ذهبنا الى داره وجدنا المركيز قائما على خدمته . واذا فرغنا من الطعام قال القومندان يخاطبه :

ـ لقد رويت قصتك يا عزيزى المركيز للسيدة فرأت فيها من الغرابة ما أثار دهشتها ورغبت أن تسمع القصة من بين شفتيك .

فلبث المركيز صامتا وهو يدير قبعته فى يديه ، ولكنه حيانا فى لطف وأدب جم . ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة حزينة وقال :

ـ انك لم تصدق قصتى يا سيدى القومندان . ولكننى أرجو أن تؤمن السيدة بأنى صادق فيما أقول . وان ليس فى هذه الحكاية حرف واحد من الاكاذيب .

وهز القومندان بدرو كتفيه هزة الرجل الذى آمن بشىء فأصبح محالا أن يرجع عنه .

ثم سألنى أن نأذن له بالانسحاب اذ سمع قصة السجين من قبل . وحتى يدع لنا الفرصة لاستجوابه كما نشاء .

واذ خلا الينا السجين شرع يروى قصته فى صوت هادىء متزن .

فلما فرغ منها قلت له :

ـ ولكن أتعلم يا سيدى ان فى باريس رجلا آخر يدعى المركيز دى شامرى .؟ وان له صلات وثيقة بجميع أسرات باريس النبيلة .

فصاح فى عجب :

ـ هذا محال . .! الا اذا . . .

وتردد برهة .

فقلت أستحثه :

ـ تكلم . . قل ما فى نفسك .!

ـ الا اذا كان هذا الرجل قد . . .

وسكت مرة أخرى . فقلت :

ـ تكلم . .

ـ الا اذا كان هو الذى أنقذته من الغرق عقب ارتطام الباخرة لامويت بالصخور . . لا شك انه سرق أوراقى الشخصية وانتحل اسمى ولقبى . .!

ـ ولكنه تبارز فى اليوم التالى لوفاة أمه بشجاعة نادرة ليذود عن سمعتها .

ـ أمه . .! أمه . .! أتعنى أمى يا سيدى . .!

فلما أنبأته أن المركيزة دى شامرى قد ماتت جثا على ركبتيه وستر وجهه بيديه . . وراح يبكى بكاء مرا . . ويرثيها بكلمات حزينة تمزق الفؤاد . .

وأمام هذا الحزن الصادق يا عزيزى الكونت آمنت ان هـــذا السجين صادق فيما ذكره لنا . وان ذلك المركيز المقيم فى باريس هو المدعى الأفاق ..

فمهما كان الانسان قديرا على التمثيل . فلن يفلح فى أن يسبغ على حزنه هذه السمات الصادقة الصادرة من أعماق القلب .

وعندما دخل علينا القومندان بعد ذلك وجـدنى أنا وزوجتى هرمين وزوجته هو أيضا آخذين بيد المركيز السجين فى رفق ونحن نحاول أن نسرى عنه .

ومع ذلك فما زال القومندان على شكوكه وريبته ولكنه أذن لى بأن أفضى اليك بهذه القصة . وقال انه هو نفسه على استعداد لان يبذل جهده للحصول على موافقة ولاة الامور على العفو عن السجين واطلاق سراحه . ولقد رأى منذ هذه اللحظة أن يتخذ المركيز خادما خاصا له وأن يعفيه من المبيت فى الليمان .

والآن دعنى أصارحك بالغرض الذى دفعنى الى أن أسرد عليك هذه القصة .

ان هذا المركيز السجين ـ سواء كان كاذبا أو صادقا ـ يزعم ان أسرته تملك قصرا كبيرا فى تورين معروفا باسم قصر أورانجيرى

وهو يذكر ان فى بهو هذا القصر صورة تمثله وهو فى الثامنة أو التاسعة من العمر .

ويقول ان هذه الصورة تمثله وهو فى الزى الايقوسي وان على رأسه قبعة شبيهة بالقلنسوة . وقد رشقت فيها ريشة طويلة . وان على كتفيه شريطا مزدوجا أحمر اللون . وان ساقه تبدو فى الصورة عارية ابتداء من الركبة

ولا تظن يا عزيزى الكونت انى أسرد لك هذه التفصيلات عبثا فان لها أهمية خطيرة .

لقد أرانا المركيز ساقه اليسرى فوجدنا بها لطخة حمراء شبيهة ببقعة ناجمة من النبيذ . وقد أكد لنا ان المصور الذى رسمه لم يغفل هذه اللطخة الحمراء فأبرزها فى صورته .

فاذا كان ذلك صحيحا يا عزيزى الكونت لم يكن هناك شك فى أن المركيز السجين صـــادق فى مزاعمـــه وأن ذلك المركيز المقيم فى باريس كذاب مدع .

« ومن أجل هذا كتبت اليك .

« أرجوك ان تمضى الى قصر أورانجيرى وتحتـــال على رؤية الصورة المعلقة فى البهو فان وجدت بها هذه اللطخـــة الحمراء كان ذلك فصل الخطاب .

« وانى فى انتظار ردك لأعرف ما ينبغى ان أفعل ».

« فرناند روشيه »

وما فرغ الكونت دى كرجاز من تلاوة هذه الرسالة حتى طرق الباب ودخل الخادم يعلن اليه قدوم الكونتس ارتوف.

وهتف الكونت حين رآها :

ـ لقد وجدته ..! لقد وجدته ..

فقالت الكونتس فى استغراب :

ـ ما هو ذلك الذى وجدته يا عزيزى الكونت ..؟

ـ فى الوقت الذى كتبت فيه الى اسبانيا أتحرى عن ذلك المركب السويدية جاءنى خطاب من اسبانيا

ـ وفى هذا الخطاب .؟

ـ معلومات عن المركيز دى شامرى .

ـ ومن الذى كتب اليك .؟

ـ فرناند

وارتعدت باكارا اذ سمعت هذا الاسم كأنما كانت لا تزال تحب فرناند على رغم كر السنين ..

وقال الكونت :

ـ ولقد عثر فرناند على المركيز ..

ـ المركيز الحقيقى .؟

ـ نعم الحقيقى يا عزيزتى الكونتس .

ودفع اليها الخطاب الذى جاءه من فرناند روشيه فلما قرأته قال لها الكونت :

ـ والآن ماذا ترين يا عزيزتى .؟

ـ سيدى الكونت .. ان الآنسة دى سالاندريرا فى اسبانيا .. والمركيز الحقيقى فى اسبانيا .. فعلى اذن أن أمضى الى اسبانيا

ـ أنت ..؟

ـ نعم وسأسافر صباح الغد .

ـ وحدك ..؟

ـ كلا .. سأستصحب معى الدكتور صاموئيل . والخادم الأسبانى زامبا الذى شفاه الدكتور من جنونه .

ـ وبأى كلام أبعث الى فرناند .

ـ لا تكتب اليه .

ـ كيف ..؟

ـ سأبلغ قادس قبل أن تصله رسالتك .

ـ والصورة ..؟ انها برهان دامغ

ـ سأحملها معى .

فابتسم الكونت أرمان دى كرجاز وقال :
ـ انى يا عزيزتى الكونتس معتاد على أن أسلمك دائما مقاليد القيادة . وفى هذه المرة لن اشذ عما ألفت . فافعلى ما بدا لك .
فقالت باكارا :
ـ انى لا أسألك يا سيدى الكونت الا أمرا واحدا
ـ اى أمر ..؟
ـ أن تزودنى بكتاب توصية الى قنصل فرنسا فى قادس
ـ لك ذلك .
ـ وسأبعث اليك برسالة من قادس .

***

وعلى أثر هذا الحديث مضت الكونتس أرتوف الى دارها وبعثت الى الدكتور صامويل تدعوه الى مقابلتها .
ولهذا رأيناه فى صدر هذه الرواية جالسا يصغى الى حديثها وهى تكشف له من أسرار هذه المأساة ما أدهشه وأذهله .
ولما ذكرت له انها راحلة فى اليوم التالى الى اسبانيا وانه سيرافقها اذا شاء اجابها بتوبه :
ـ انى على استعداد لذلك .
ـ وهل تعتقد ان زامبا شفى تماما وأن فى وسعه أن يرافقنا؟
ـ بكل تأكيد .
ـ حسنا . يجب يا سيدى الطبيب أن تستأذن قاضى التحقيق فى أن يسمح لك باستصحاب زامبا بحجة أن ذلك ضرورى لشفائه . وقد انبأنى الكونت ارمان دى كرجاز أنه على استعداد لتأييدك فى هذا الطلب لدى القاضى .
ـ ولكن ما الذى ننوى أن نصنع فى اسبانيا يا سيدتى ؟
وذلك ان باكارا كتمت عنه رسالة فرناند روسيه ولم تنبئه بأنها اهتدت الى آثار المركيز دى شامرى الحقيقى .
وابتسمت باكارا وقالت :
ـ سنذهب الى اسبانيا لنقابل المركيز الحقيقى ..!
ـ وهل اهتديت الى مقره ..؟
ـ انه فى سجن قادس .
فارتعد الدكتور وقال :
ـ وبأية تهمة .!
ـ بتهمة الاتجار فى الرقيق .
ـ وماذا نفعل بزوجك الكونت ارتوف .؟
ـ يمكننا أن نستصحبه معنا ..

ـ لست استصوب هذا فان حالته العقلية لا تزال دقيقة واخشى أن تؤدى مشقات الرحلة الى انتكاسه .. ولكن أتطول رحلتنا .؟

ـ أسبوعان .

ـ اذن يمكننى أن أعهد الى مساعدى بأن يتولى علاجه أثناء غيبتى .

وانصرف الطبيب مسرعا ليعد العدة للرحيل

وبعد نصف ساعة جاء زامبا .

ولم يعد مجنونا كما كان .

ولقد أقبل على الكونتس ارتوف يحييها فى احترام فقالت له :

ـ زامبا .. ألم تفكر يوما فى شأن نفسك ومصيرك ؟

فأخذته الرعدة . وامتقع وجهه .

ـ لقد أصدرت عليك محاكم اسبانيا حكما بالاعدام . وأنت الآن معتقل فى فرنسا . وقد عهد بك البوليس الى الطبيب تحت مسئوليته الخاصة . فاذا ما قرر الدكتور انك شفيت سلمتك الحكومة الفرنسية الى الحكومة الاسبانية لتنفذ فيك كلمة القضاء

واشتد امتقاع وجه زامبا وقال وهو يرتعد :

ـ سيدتى .! الرحمة .! الرحمة .!

واسترسلت باكارا قائلة :

ـ ولكن البوليس الفرنسي لا يعرف شخصيتك الحقيقية حتى الآن . وان كان لا بد من اكتشافها ان آجلا وان عاجلا

فقال زامبا فى ذعر :

ـ وهل تنوين هتك سترى يا سيدتى .؟

ـ كلا .. الا اذا أبيت أن تطيعنى

ـ انى عبدك الخاضع .

ـ لا أريد منك الآن الا أن تكون خادمى الخاص أثناء سفرى .

ـ الى أية بلد يا سيدتى الكونتس .؟

ـ الى اسبانيا .

ـ اسبانيا .! ولكنك تعلمين أن محاكم اسبانيا هى التى قضت باعدامى .

ـ وهل نسيت انك أقمت فى خدمة الدون جوزيه أربعة أعوام وقد رافقته الى اسبانيا مرارا دون أن يحيق بك أى خطر .؟

ـ هذا صحيح ولكن ...

ـ وستكون فى خدمتى آمنا سالما كما كنت أيام الدون جوزيه

فأطرق زامبا هنيهة ثم رفع رأسه وقال :

ـ انى رهن اشارتك
ـ والآن أتعلم لأية غاية أكرهتك على مرافقتى الى اسبانيا ؟
ـ كلا .
ـ ان الآنسة دى سالاندريرا فى اسبانيا .
ـ حقا .!
وكان زامبا يجهل ان الدوق أباها قد مات
وسأذهب بك اليها لتقص عليها كيف دبرت هذه المكائد التى فضت الى مقتل الدون جوزيه ومصرع الدوق دى شاتو ميلى
ـ ومتى تطلقين سراحى .؟
ـ فى اليوم الذى يدخل فيه الليمان ذلك الرجل الذى كافأك على خدماتك واخلاصك بطعنة خنجر .!

القسم الثانى

- ١ -

فى الساعة الثامنة من مساء اليوم التالى غادرت الكونتس ارتوف باريس وفى رفقتها الدكتور صامويل والخادم الاسبانى زامبا .
وكانت باكارا قد ارتدت ثياب الفتيان كما فعلت وهى فى رفقة رولان دى كلاييه . على انها مبالغة منها فى الحذر جزت شعرها الجميل حتى صار شبيها بشعور الرجال .
وبعد يومين كان المركب قد بلغ مقاطعة تورين وقد أشرفت الشمس على المغيب .
وتحولت الكونتس الى الطبيب وقالت :
ـ انك لم تسألنى يا عزيزى الدكتور عن الوجهة التى نقصد اليها ..
ـ أظن يا سيدتى الكونتس اننا ماضون الى اسبانيا ؟
ـ هذا صحيح .. ولكننا سنعرج أولا على جهة أخرى .
ـ اذن فسنبيت فى طريقنا ؟
ـ نعم .. وفى هذا المساء .
ـ فى أية جهة ..؟
ـ على مرحلتين من هذا المكان
ـ حقا ..؟
ـ فى قصر اورانجيرى .
ـ قصر المركيز دى شامرى .؟
ـ تماما
ـ ولكن ...

فقاطعته الكونتس باشارة من يدها وقالت مسترسلة :

ـ ان المركيز الأفاق هو عميلك . وقد أشرت أنت عليه بايعاز منى بأن يغادر باريس ويمضى بضعة أيام فى قصر لورانجيرى . ويغلب على ظنى أنه سيغادر باريس مساء اليوم فى رفقة صهره الكونت دامول .

ـ هذا صحيح .

ـ وغدا سيصل الى قصر اورانجيرى .

ـ اذن . ففى نيتك انتظاره حتى يحضر ؟

ـ كلا .. ولكننا سنبيت الليلة فى قصر اورانجيرى .

ـ ولماذا .؟

ـ ذلك هو السر الذى استميحك عذرا فى أن أكتمه دونك حتى تحين الساعة المناسبة لافشائه . ولكن حسبك ان تعلم أن سائق مركبنا سيدفع العربة عمدا الى الحفرة القريبة من القصر بحيث تنكسر احدى عجلاتها .

وكان الدكتور قد ألف من باكارا أن تكتم دونه أسرارها فلا تطلعه الا على ما تشاء وحين تشاء .

وبعد ساعة أشرف المركب على قصر أورانجيرى وسار فى طريق مرصوف يحاذى الحديقة .

وفجأة حرك الحوذى سوطه فى الهواء تباعا . وكانت هذه علامة متفقا عليها بينه وبين الكونتس . فالتفتت هذه الى الدكتور وقالت :

ـ احذر .. تشبث بمقعدك جيدا يا دكتور فهنا سينحدر المركب الى الحفرة . فاحذر أن يصيبك أذى .

وان هى الا لحظات حتى اهتز المركب فى عنف . ثم انحدر الى الحفرة ومال على جانبه . ولم تصب الكونت أو الدكتور بأى أذى أما زامبا فقد انزلق عن مقعده الى جدول ماء قريب . على حين أخذ الحوذى يصرخ مستنجدا .

وخف الى المركب بعض خدم القصر وتعاونوا على انتشال المركب ونهض زامبا من سقطته ملوثا بالأوحال .

وتكلمت الكونتس قائلة :

ـ حمدا لله على نجاتنا يا دكتور .

وقال أحد خدم القصر مخاطبا باكارا وهو يحسبها رجلا :

ـ أرجو ألا تكون قد أصبت بأذى يا سيدى ... وأنت أيضا يا سيدى ..!

ـ اننا بخير .. شكرا .

فقال الحوذى :

- ولكن احدى عجلات المركب قد انكسرت . ولا زالت أمامنا ثلاثة أميال حتى نبلغ المرحلة القريبة .

فقالت باكارا :

- وأين نحن الآن ..؟

فقال الخادم العجوز :

- فى أراضى اورانجيرى .. اننى وكيل هذا القصر .

- ومن صاحبه ؟

- المركيز دى شامرى .

فقالت الكونتس التى كانت تمثل دور رجل ببراعة :

- المركيز دى شامرى ..! انى أعرفه معرفة وثيقة .. انه صهر الفيكونت دامول ..! أليس كذلك ؟

فانحنى وكيل القصر مجيبا وقال :

- فى هذه الحالة ما دام سيدى صديقا لسادتى . فواجب على أن أدعوه الى قضاء هذه الليلة فى القصر حتى يتم اصلاح المركب .

- شكرا لك .

وسارت الكونتس الى القصر وفى رفقتها الدكتور صامويل يتقدمهما الوكيل العجوز انطوان

وأمر انطوان بالطعام فقدم الى الضيوف . فلما فرغوا منه التفتت اليه الكونتس قائلة :

- وهل من عادة المركيز أن يمضى فى هذا القصر وقتا طويلا .؟

- كلا . فمنذ عودته من بلاد الهند لم يحضر الى هذا القصر مطلقا .

فابتسمت الكونتس وقالت :

- دعنى اذن أحمل اليك نبأ سارا .

- حقا ..؟

- لقد التقيت بالمركيز فى النادى أول أمس فأنبأنى انه سيحضر الى ضيعته فى التورين بعد يومين . فاذا لم يكن له غير هذا القصر فمعنى ذلك انه آت اليكم

- ان سيدى المركيز لا يملك فى تورين غير قصر اورانجيرى

- انه سيغادر باريس هذا المساء وغدا يصل اليكم .

فظهر الابتهاج على وجه الشيخ وهتف :

- معذرة ياسيدى عن هذا الانفعال . فقد كفلت سيدى المركيز وهو بعد طفل صغير . ولشد ما أتلهف الى لقائه

وأومأ انطوان العجوز الى صورة معلقة فى صدر البهو . وقال :

ـ هذه صورته .
ـ صورة المركيز .. ؟
ـ نعم . وهو فى الثامنة من العمر .
فقالت الكونتس :
ـ لشد ما تغير اذن . ! ان ملامحه تختلف كثيرا عن هذه الصورة .
ـ اتظن ذلك . ؟
ـ نعم . فليس بينهما شيء من الشبه .
فقال انطوان العجوز :
ـ لا غرابة فى ذلك بعد أن أمضى بعيدا عن بلاده عشرين سنة فى تلك الاصقاع الهندية الحارة . وقل بين الرجال من يشابه صورته فى عهد الطفولة .
ولما انصرف انطوان دعت الكونتس أرته ف خادمها ؛ امبا وقالت له :
ـ انك كنت لصا . ؟
فاطرق الأسبانى برأسه ولم يتكلم .
ـ وكنت أعرف انك لص بارع .! ولهذا أريد منك أن تبرهن لى على انك نلت شهرتك عن جدارة .

وبانت امارات الدهش على وجه زامبا . فقالت الكونتس :
ـ اترى هذه الصورة .. ؟
ـ صورة الطفل . ؟
ـ نعم .. أريد منك أن تسرقها .
ـ هذا عجيب .
ـ سننام فى هذه الغرفة أنا والدكتور .. وفى الساعة الرابعة صباحا سنغادر القصر . فدبر الأمر بحيث تنزع اللوحة من اطارها وتدسها تحت ثوبك أو بين الحقائب .
فقال زامبا فى ايمان :
ـ هذه مهمة هينة .
ومضى زامبا الى شأنه . وحين رجع انطوان قالت باكارا تخاطبه :
ـ لقد ذكرت لك اننى صديق لسيدك ولكنى غفلت عن ان انبئك باسمى . فهاك بطاقتى .

واخرجت بطاقة من جيبها دفعتها الى انطوان . فرأى فى صدرها شارة المركيزية فاحنى رأسه من جديد محييا .

وقالت الكونتس :
- انى أعتمد عليك فى سرعة انجاز العـــــربة . اذ أريد أن أواصل رحلتى فى الساعة الرابعة صباحا .
- يمكنك أن تعتمد على ياسيدى .

* * *

فى الساعة الرابعة صباحا قرع زامبا باب المخدع الذى أوت اليه باكارا والدكتور . فلما فتحت له قال :
- ان المركب معد .
- والصورة ؟
- انها فى المركب مع الحقائب .
- احذر أن يفطن الوكيل الى اختفائها قبل رحيلنا ..
- لا أظنه سيفطن اليها فان الباب اذا فتح حجبها عن الداخل
وكان زامبا على حق .
فاذا مافتح الباب كان شبه ستار يحجب اطار الصورة فلا يفطن من يدخل البهو الى اختفائها .
وهبطت باكارا والدكتور الى الفناء . وكان الخادم قد ايقظ وكيل القصر من نومه فخف مسرعا الى توديع الضيوف .
وقالت باكارا :
- أرجوك أن تبلغ المركيز تحياتى مع شكرى الخالص .
- سأبلغه ياسيدى .
وبعد دقائق انطلق المركب فى طريقه الى الحدود .
ودخل انطوان الى القصر ليوصد النوافذ .
وحانت منه لفتة فلم يجد صورة المركيز وهو طفـل .. لم يكن هناك الا الاطار .
وأطلق صرخة دهش واستغراب .
ودخل عليه أحد الخدم يقول :
- هناك شىء غريب يامسيو انطوان .
- ماذا تعنى . ؟
- هذا السيد الشاب ..
- ماشأنه .؟
- انه امرأة متنكرة فى زى الرجال .
فصاح انطوان :
- ماذا تقول . ! وســـواء كان رجلا أو امرأة فانى موقن من انه سرق صورة سيدى المركيز .

وأومأ الى الاطار . ثم انطلق يجرى الى الطريق ولكن مركبة الكونتس كان قد ابتعد ونأى .

وقال الخادم :

ـ انها امرأة بلا ريب . امرأة مغرمة بسيدى المركيز . ومن اجل هذا سرقت صورته . على سبيل الذكرى .

ـ ٢ ـ

والآن فلندع باكارا فى طريقها الى اسبانيا ولنعد الى المركيز الكاذب اى روكامبول . فقد تركناه فى المركب مغمى عليه حين رأى سكين المقصلة تهوى على عنق ذلك الفتى الذى قتل امه .

كان الفيكونت فابيان مستغرقا فى صلاته فلم يفطن الى اغماء روكامبول . فلما استدار اليه ورآه على هذه الحال أمر السائق بالاسراع الى فندق قريب .

وبعد ربع ساعة كان المركب قد وقف ببابه فنقل المركيز الى الفراش وهو لا يزال غائبا عن صوابه ولم تفلح الاملاح المنعشة فى رده الى الصواب فامر فابيان باستدعاء احد الاطباء .

وقال الطبيب بعد ان أتم فحصه :

ـ لقد أصيب بصدمة عصبية ناشئة عن الخوف والاضطراب ويغلب على ظنى انه ستعقب هذه النوبة حمى مصحوبة بهذيان .

ولما أفاق روكامبول من اغمائه دار ببصره فيما حوله فاستغرب مرأى هذه الغرفة التى لاعهد له بها من قبل وقال فى كلمات متقطعة من تأثير الحمى :

ـ أين أنا ؟ أين أنا الان ؟

ثم ضرب جبينه بيده وقال :

ـ لقد ذكرت .. ! لقد رأيت المقصلة . ! والجلاد . ! ربى . ! لقد رأيت سكين المقصلة وهى تتحرك .

ثم أخذ يضحك ضحكات عالية .

وزايل فابيان مقعده واقترب منه .

واذ رآه روكامبول فزع فزعا شديدا وقد نالت منه الحمى وصاح :

ـ لاتقترب منى . ! الى الوراء . ! الى الوراء أتريد ان تشنقنى أتريد أن تنفذ فى حكم الاعدام . لانى انا ايضا قتلت أمى .! قتلت المرأة التى تبنتنى .. لقد طعنتها ثم فررت هاربا .. ! اننى ادعى . انى ادعى . !

ثم أمسك عن الكلام فجأة كأنما عاوده رشاده حتى فى لحظة الهذيان فكتم سره .

ثم عاد يصيح من جديد :

ـ الى الوراء .. ! الى الوراء .. !

وعلى أثر هذه الصرخات الداوية استغرق فى النوم . فلم يفتح عينيه الا فى الصباح . ولكنه كان هادئا بادى السكينة .

واقبل عليه فابيان يسأله عن حاله فقال روكامبول :

ـ أهذا أنت ياصديقى .. ؟

ـ آه .. الآن عرفتنى ..؟

ـ وأين نحن الآن ..؟

ـ أننا على مسافة ثلاثة أميال من اورانجيرى .. فى احد الفنادق .

ـ ولماذا نزلنا فى هذا الفندق ..؟

ـ لقد أغمى عليك واصبت بالحمى ..

ـ آه .. حقا !

ـ نعم .. وكنت تهذى .

فامتقع وجه روكامبول وقال :

ـ لقد ذكرت ..؟ لقد افزعنى مرأى المقصلة فاغمى على

ـ هو ذاك .

ـ يالى من شاب مضطرب الاعصاب ..! وبم كنت اهذى ؟

فضحك فابيان وقال :

ـ لقد رددت فى هذيانك أشياء غريبة .

حقا ..؟

ـ تصور انك انتحلت لنفسك قصة ذلك القاتل الذى رأيناه يعدم .. فجعلت تقول انك ايضا قتلت أمك بالتبنى وانك فررت هاربا .

فاشتد اضطراب روكامبول وخشى ان يكون قد هتك سره وقال :

ـ وهل قلت غير هذا .. !

ـ كلا .. لقد قلت .. اننى ادعى .. ثم امسكت فجأة عن الكلام ..

فتنفس روكامبول الصعداء وقال :

ـ ياللهذيان المضحك .. !

ولما اقتربت منك خيل اليك اننى الجلاد فأمرتنى بألا أدنو منك

فجعل روكامبول ينظر الى فابيان متفحصا وهو يسائل نفسه عما اذا كان الفيكونت قد علم سره .. ولكنه الفاه يتكلم ببساطة فداخله الاطمئنان .

وقال الفيكونت :

ـ والآن كيف ترى حالك ..؟ أيمكنك مواصلة الرحلة .؟

ـ بكل تاكيد .

واذ خلا روكامبول الى نفسه جعل يقول :

ـ الا ما أحمقني وما أضعف أعصابي ..! أيغمى على لمرأى رجل يقتل كانى لم أسفك دما فى حياتى .. ! وهذا الهذيان الذى كاد يفضح أمرى .. ! لو انى رددت هذه الكلمات أمام باكارا او الكونت ارمان دى كرجاز لعرف انى روكامبول أما صهرى فابيان فرجل خالص الطوية عظيم السذاجة . فلم يفطن الى أمرى .

ثم ضحك وقال مرة اخرى :

ـ عجبا .. اتخيف المقصلة تلميذ سير ويليامز .. !

وعندما ردد هذا الاسم قال فى نفسه :

ـ لقد أخطأت بقتلى أستاذى اندريا ..! فلو انه كان على قيد الحياة لظل يوالينى بارشاداته .. ! نعم .. انه النور الذى يضىء نجمى ..! واننى لأخشى أن ينطفىء نجمى بانطفاء هذا النور لقد كنت مجنونا ساعة ان قتلته انه ليخيل الى ان القبر الذى طواه لايلبث أن يطوينى .. ! ترى هل قدر لى أن ..؟

ودخل عليه فابيان فقطع حبل تصوراته .

وارتدى روكامبول ثيابه وتناول طعامه وبعد ساعة كان المركب منطلقا بهما الى قصر أورانجيرى .

واذ أشرف روكامبول على القصر جعل يقول :

ـ الآن بدأت تستيقظ ذكريات الطفولة .. ! انى اذكر هذه المواقع جيدا وهذه الاشجار .. ! وهذه الكنيسة المتخربة .. !

واذ استدار المركب الى الطريق المرصوف المفضى الى القصر سمع الخدم وقع حوافر الجياد فخفوا الى استقبال سيدهم وابتدر روكامبول خدمه بالتحية قائلا :

ـ أهذا أنت يا جوزيف .. أهذه أنت يا ماريون .

اهذه أنت يا كاترين .! هل تدهشكم قوة ذاكرتى ..! لم أركم منذ عشرين عاما ولكنى لا زلت أذكر أسماءكم كأنما رأيتكم بالامس

كانت هذه خدعة لجأ اليها روكامبول فقبل أن ينتحل اسم المركيز دى شامرى حضر الى القصر متنكرا فى زى الشحاذين

واستطاع ان يعرف اسماء الخدم حتى يكون على هدى اذا التقى بهم .
ثم قال :
ـ نعم .. انى اذكركم جميعا .. ولـكن اين عزيزى انطوان .. انى لا أراه بينكم .. !
ـ لقد ذهب مسيو انطوان الى المدينة ..
ـ لمـاذا ..؟
ـ ليقدم شكوى الى ضابط البوليس .
فقال مسيو دامول :
ـ فى أى شان ..؟
ـ لقد كنا فى هذه الليلة هدفا للسرقة ..
ـ حقا .؟ ومن السارق .؟
فانبرى الخادم جوزيف يقص عليه ماحدث وكيف ان انطوان آوى القوم الى القصر . وكيف ان الشاب زعم انه صديق للمركيز
ـ وما الاسم الذى ذكره .؟
ـ لاأدرى ياسيدى المركيز .. ان انطوان هو الذى يعرفه ..
ـ وهل هذا الشاب هو السارق .؟
ـ نعم ياسيدى .
ـ وماالذى سرق .؟
ـ صورة سيدى المركيز التى كانت معلقة فى البهو .. تلك الصور التى تمثله وهو طفل فى الثامنة من العمر .
وماملك فابيان وروكامبول ان صرخا فى دهش واستغراب

ـ ٣ ـ

استرسل الخادم جوزيف يقول :
ـ والدليل على ان هذا السيد الشاب يعرف سيدى المركيز هو انه أخطرنا بقدومه .
ـ أخطركم بقدومى .؟
ـ نعم يا سيدى فقد انبأ انطوان انكم ستصلون الليـــلة الى القصر .
فقال فابيان دامول :
ـ ألا تذكرياصديقى لمن من أصحابك ذكرت عزمك على السفر ؟
ومضى جوزيف متابعا حديثه :
ـ لقد قال انه التقى بك فى النادى بالامس ..
ـ بالامس ..! انى لم اذهب الى النادى منذ شهرين ..

فضحك فابيان وقال :

ـ ان لك من الأصدقاء طرازا بديعا ياعزيزى .. ينزلون عليك ضيوفا ثم يسرقونك .

وفكر روكامبول برهة ثم قال :

ـ ارنى هذه الصورة ياجوزيف .

واذ رآها قال :

ـ عجبا .. ! انه اكتفى بسرقة اللوحة ولم يمد يدا الى الاطار مع نفاسته وغلو ثمنه .. ولكن صف لى هذا الشاب ..

ـ انه معتدل القامة ، نحيف البنية أشقر الشعر .

ـ وهل يعرف انطوان اسمه ..؟

ـ نعم لقد اعطاه بطاقته .

ثم ابتسم جوزيف وقال :

ـ ان الاب انطوان خادم مخلص ولكنه قليل الذكاء ..

ـ ماذا تعنى ..؟

ـ لقد ذهب الى مركز البوليس ليقدم شكواه ضد السارق .

لكنى لم أشاطره هـذا الرأى . فان اللص الذى يحضر الى القصر فى موكب بريد ليسرق صورة لايمكن أن يكون لصا عاديا .

فقال فابيان :

ـ أصبت . ! هذا استنتاج صائب .

فقال جوزيف مستطردا فى صوت خافت :

ـ أياذن لى سيدى المركيز بان أكاشفه بسر .؟

ـ تـــكلم .

ـ انى اعتقد ان هذا اللص يعلق على هذه الصورة اهمية كبيرة

ـ اتظن ذلك .؟

ـ وأعتقد انه ماكان ليتردد فى سرقتها بأى ثمن .!

ـ ياللشيطان . !

وابتعد جوزيف قليلا وهمس فى اذن روكامبول :

ـ انى اعتقد ان هذا الشاب الاشقر النحيف امرأة متنكرة فى زى الرجال .

وسمع فابيان هـذه الكلمات فانفجر يضحك . عـلى نقيض روكامبول الذى امتقع لونه وظهر القلق فى عينيه .

وقال روكامبول فى نفسه

ـ هذا الشاب هو اذن باكارا .

واسترسل فابيان فى ضحكاته وقال :

ـ اتكون محبوبا الى هذا الحد ثم تكتم دونى أسم هذه المرأه التى تتنكر فى زى الرجال لكى تسرق صورة للو .. '

وفى هذه اللحظة سمعوا وقع حوافر جواد على طريق القصر فقال جوزيف :

ـ هاهو ذا مسيو انطوان قد رجع .

فقال فابيان :

ـ وسيأتينا معه بمفتاح هذا السر .؟

وكانما أراد روكامبول ان يخلو بنفسه برهة قبل أن يلقى انطوان فقال :

ـ انى ماض الى مخدعى فاذهب انت الى لقاء انطوان .

وسار روكامبول الى المخدع فى اثر جوزيف . على حين خرج فابيان الى الفناء .

وما رأى انطوان الفيكونت فابيان داموك حتى أقبل عليه يقول وهو متضرج الوجه انفعالا :

ـ أهو هنا .! رباه . ! انه هنا انه هنا . ! ذلك الذى عرفته وكفلته وهو بعد رضيع فى المهد .. لقد مررت بمكتب البريد وأنا فى القرية فجئته بخطاب باسمه .!

ـ ومن أين جاءه هذا الخطاب .؟

ـ من اسبانيا .. وقد ورد بعنوانه فى باريس فحول اليه .

وأسرع أحد الخدم بالرسالة الى روكامبول فما أن رأى عليها الطوابع الاسبانية حتى أشرق وجهه ونسى الخطر الذى يهدده وفضها فى لهفة .

كان الخطاب من خطيبته دولوريس كونسبسيون دى سالاندريرا وكان هذا نصه : ـ

« صديقى :

ها قد مضت ثمانية أيام دون أن أخط اليك حرفا .

العلك سترمى حبيبتك دولوريس بأنها قد نسيتك ولم تعد تفكر فيك .. ولكنى اقسم لك بأقدس الأيمان أنه ما مرت بى ساعة الا ذكرتك فيها وتمنيت لقاءك .

كنت قد بعثت اليك بخطابى السابق من سالاندريرا حيث اقمت وأمى ستة أسابيع نبكى هذا الاب المحبوب الذى رحل عنا فجاة .

والآن اكتب اليك من قصرنا فى جرانديه وهو ذلك القصر الذى امضيت فيه طفولتى والذى يقع فى ضواحى مدينة قادس

وعلى مقربة من هذا القصر لفظ الدون بدرو أنفاسه الأخيرة بعد أن فتك به ذلك السم الذى دسه له أخوه الدون جوزيه بمساعدة صديقته النورية .

ولكن ليطمئن بالك . فما جئت الى هذا القصر لاكون على كثب من مقبرة الدون بدرو . وانما جئت لأسعى فى تعجيل زواجنا انك تعلم ان تقاليد الحداد فى اسبانيا صارمة قاسية .

فى اليوم الذى مات فيه أبى كنت وشيكة بأن أصبح زوجة لك أمام الله والناس .

ولو أن الأجل امتد به بضع ساعات لما كان هذا الفراق الذى يضرب بيننا الآن .

ولكن الأقدار شاءت غير ذلك ..

عند ما هبطت دى سالاندريرا أحضر الى زيارتنا أنا وأمى اسقف غرناطة وهو يمت الى بصلة من القرابة تسمح لى بان أدعوه عمى .. وهو عظيم الشأن فى اسبانيا وله فى البلاط الملكى مكانة ملحوظة ..

وعند ما هم بالانصراف تحدث الى أمى طويلا وقال لها :

ـ لقد كانت وفاة الدوق يا ابنة العم نكبة اليمة . وقد زجت بابنتك فى موقف حرج . فقد كان مقررا أن تتزوج المركيز دى شامرى فى اليوم الذى نزل فيه الموت بزوجك . انها تحب خطيبها أليس كذلك ؟ ..

وقد أنبأتنى أمى فيما بعد أنها أجابت على هذا السؤال بأن أكدت له ما بيننا من حب وقالت :

ـ وانما أخشى أن تصاب بالعته من تأثير حزنها لفراق خطيبها اذ أكرهتنا التقاليد على أن نرجىء الزواج بضعة شهور .

فقال الأسقف وقد سمع منها هذه الكلمات :

ـ صدقت يا ابنة العم . فان التقاليد تحتم ارجاء الزواج فى مثل هذه الأحوال شهرين ونصف شهر .

ـ هذا صحيح .

ـ واذا ما تزوجت ابنتك المركيز دى شامرى قبل انقضاء مدة الحداد قاطعها جميع نبلاء اسبانيا .

وتنهدت أمى وظلت صامتة فقال الأسقف مسترسلا :

ـ ولكنى أشاطرك مخاوفك على ابنتك . وأخشى أن يذهب الحزن بصوابها . ولهذا يهمنى أن أجمع بينهما فى أقرب وقت ممكن .

فنظرت اليه أمى فى استغراب . فاستطرد :
ـ ويلوح لى اننى اهتديت الى الوسيلة التى نذلل بها هـذه العقبات التى تقيمها التقاليد .
فهتفت أمى فى ابتهاج :
ـ حقـا .؟
ـ نعم .. سنتغلب على التقاليد ويتم الزواج دون أن يقاطعنا أحد من نبلاء أسبانيا .
ـ وكيف .؟
ـ اعيرينى سمعك أولا . فقبل أن اجيب على سؤالك ينبغى أن تزيدينى ايضاحا عن أمور لازالت غامضة على .
سل ماشئت .
ـ هل أوصى الدوق لابنته بكل ثورته .؟
ـ نعـم .
ـ وهل أوصى بلقب الدوقية للمركيز دى شامرى ؟ وهل نص على ذلك فى وثيقة الزواج .؟
ـ نعـم .
ـ وهل اشترط أن يتخلى المركيز عن اسمه ويتخذ اسم دى سالاندريرا .؟
ـ نعم .. وفى اليوم السابق لموته بعث برسـالة الى صاحبة الجلالة ملـكتنا يسألها أن تصادق على هذا التنازل فى اللقب والاسـم ..
فقال الاسقف فى نبرة تدل على الاغتباط :
ـ وهذا ماكنت أرجوه .
ـ ألا تجلو لى ما غمض عنى .؟
ـ انك تعلمين أن لى عند جلالة الملكة مكانة خاصة .
ـ هذا ما أنا موقنة منه .
ـ ولهذا استقر عزمى على أن اسافر الى مدريد فأقابل جلالتها وأفضى اليها بحقيقة الحال . واذكرها بالخدمات الجليـلة التى أسداها المرحوم الدوق للعرش .
ـ وبعد .؟
ـ ثم اسألها أن تصادق على هذا التنازل عن الاسم واللقب ثم أرجوها أن تقلد المركيز دى شامرى أحد المناصب الدبلوماسـية الكبيرة وانى أعلم أن هناك بحثا فى الوقت الحاضر يدور حول تعيين سفير لاسبانيا فى بلاد البرازيل . وهم ينشدون لهذا المنصب رجلا

رفيع اللقب عظيم الثروة . ولم يقع اختيار جلالتها على أحد بعد .
ولكننى أعلم انه كان فى نية جلالتها أن تقلد هذا المنصب للدوق دى سالاندريرا فحالت وفاته دون ذلك . ولكن لا احسب ان جلالتها سترفض أن تقلده لخلفه .

فقالت أمى وقد اشتدت دهشتها :

ـ أتنوى ان تحادثها فى هذا ؟ .

ـ نعم ..

ـ ولكن ما علاقة هذا كله بزواج ابنتى ؟ .

فابتسم الأسقف وقال :

ـ ألم تدركى خطتى بعد يا ابنة العم ..؟

ـ كلا

ـ اعلمى اذن انى سأقابل جلالة الملكة وسأرجوها أن تعين المركيز دى شامرى سفيرا لاسبانيا فى البرازيل .

ـ ولكن ...

ـ ولا بد أن يرحل السفير الجديد الى مقر منصبه قبل انقضاء شهرين . ولست تجهلين أن التقاليد الاسبانية تقضى بأن يكون السفير متزوجا . فلن يستطيع المركيز دى شامرى أن يتقلد منصبه الا بعد حفلة الزفاف .

ـ هذا معناه انه لن يرحل الى البرازيل الا بعد انقضاء فترة الحداد .

فضحك الأسقف وقال :

ـ أو معناه ان فترة الحداد يجب أن تنتهى فورا لكى يتسنى له الرحيل .

ـ ماذا تعنى ؟ ..

ـ أعنى بمجرد صدور امر جلالتها بتعيينه سفيرا سيضطر الى الرحيل الى البرازيل لأن العلاقات السياسية بيننا وبين تلك البلاد لا تحتمل الاهمال ..

ولما كان يستحيل عليه أن يرحل قبل أن يتزوج فالحل الوحيد هو أن يتزوج فورا ليرحل فورا .. !

ـ ولكن التقاليد ..؟ !

ـ لن تكون التقاليد عقبة فى هذه الحالة لأن رغبة جلالة الملكة فوق التقاليد وسيدرك الناس جميعا أن هذا الزواج لم يتم فورا الا بأمر من جلالتها حتى يتسنى لسفيرها أن يباشر مهام منصبه الخطير .. واذ ذاك لن يجرؤ أحد على أن يلوم دولوريس على مبادرتها الى الزواج قبل انقضاء فترة الحداد .

واختتم الأسقف حديثه مع أمي بأن قال :
ـ ورجائي اليك ان تكتمي هذا النبأ عن دولوريس فقد اخفق في مسعاي ولست أحب أن تصاب المسكينة بصدمة جديدة .. تريثي حتى أكتب اليك ..
واسترسلت دولوريس في خطابها الى روكامبول قائلة :
وقد برت أمي بوعدها وكتمت عني تفاصيل هذا الحديث الذي دار بينها وبين عمي .. وبعد شهر أنبأتني أمي اننا مسافرتان الى غرناطة لنحل بقصر جرانديبه ، وقد أردت أن اكتب اليك .. فحالت أمي دون ذلك وقالت لي :
ـ ستكتبين اليه بعد ثمانية أيام ..
ـ وما السبب ؟ ..
ـ لأنك قد تفضين الى خطيبك بنبأ سار ..
وقد الححت عليها مستفسرة ولكنها أبت الا أن تلوذ بالصمت
وفي اليوم الذي برحنا فيه دي سالاندريرا تلقت أمي رسالة من الاسقف هذا نصها :
« ابنة العم العزيزة ..
سارت الأمور على ما يرام ، واعتقد أن غايتي ستتحقق .. غادري دي سالاندريرا ، واذهبي الى غرناطة ، وثابري على كتمان الأمر عن عزيزتنا دولوريس » ..
وعند وصولنا الى غرناطة تلقت أمي رسالة أخرى من الأسقف ..
وما قرأتها حتى دعتني اليها وكاشفتني بهذا الذي ذكرته لك في هذه الرسالة ..

ـ ٤ ـ

تابعت دولوريس رسالتها بقولها .. وهذا نص الرسالة الثانية التي تلقتها أمي من الأسقف :
« ابنة العم العزيزة ..
لقد عزمت جلالة الملكة على أن تزور مدينة قادس ..
وغرناطة تقع في الطريق الى هذه المدينة .. وقد وعدتني جلالتها بأن تمر بقصرك في غرناطة كأنما جاء الأمر صدفة .. ولكي تظهر تقديرها نحو الدوق الراحل ستضم دولوريس الى نساء البلاط .. ولما كان هذا المنصب لا يقلد الا للمتزوجات فسيكون هذا التعيين مبررا كافيا للتعجيل بزواج الفتاة العزيزة

« اذا ما وصلت الى غـرناطة فابعثى الى برسول يخطرنى بقدومك » ..

ـ كانت تلك هى رسالة الاسقف الى امى .. وقـد قراتها ثم أفضت الى بالأمر كله .. والآن اسمع ما حدث بعد ذلك .. أصبحنا ذات يوم فاذا خادمتى تدخل على راكضة وهى تقول :

ـ سيدتى ..! ان موكب الملـكة بالبـاب ، وأسرعت وأمى نستقبل جلالتها ونرحب بها .. فأسبغت علينا عطفها وراحت تعزى أمى عن وفاة أبى الدوق وتقول :

ـ لم أشأ يا دوقة ان أمر بالقرب من قصرك دون أن اعرج على زيارتك لأعزيك عن فقد مواطن من أخلص الناس للعرش .

وقد أمضت جلالتها ساعتين كاملتين فى قصرنا ، وعنـدما همت بالانصراف قالت تخاطبنى :

اظهارا لتقديرى لك وللدوق قررت أن أعينك وصيفة شرف فى البلاط ..

وعقد الفرح لسانى ولم أدر كيف أجيب ، فتولت أمى عنى هذه المهمة ..

وقالت جلالتها أيضا :

ـ انى سأقيم شهرا فى قادس ويسرنى يا دوقة أن تزورينى

وشكرت أمى لجلالتها هذا العطف الملكى .. وعقب انصراف جلالتها بيومين حضر عمى الأسـقف لزيارتنا ودعانا الى الاقامة فى قصره فى غرناطة .. ومنه سأكتب اليك بعد ثلاثة أيام ..

ومهما يكن من الأمر فأرجوك يا عـزيزى أن تتأهب للسفر الى اسبانيا قريبا فقد حانت ساعة الهناء » ..

« دولوريس كونسبسيون »

وما قرأ روكامبول هذه الرسالة حتى استطاره الفرح ونسى ما كان من سرقة الصورة وراح يقول لنفسه :

ـ يا للجنون .. ! الآن قتلت أندريا .. ولأن هذا الأعمى قد زعم انه هو عنوان حظى السعيد يداخلنى الوهم ، وأعتقـد أنى فقدت كل شىء ..

وطوى الرســالة ودسها فى جيبه ومضى الى البهو ليقابل انطوان ..

وبعد أن حيا انطوان سيده وقبل يده فى حرارة أخذ يقص عليه حادث سرقة الصورة وقال له فابيان :

ـ وما اسم هذا السيد الشاب ؟ ..

ـ لقد أعطانى بطاقته .. وها هى ذى ..

وأخرج البطاقة من جيبه ودفعها الى فابيان وقرأها فى صوت مرتفع :

« مركيز دون أنجورى لوس مونتيه »

وما سمع روكامبول هذا الاسم حتى شحب لونه .. انه احد الأسماء التى انتحلها فيما مضى ليستخدمها سترا لمكائده ..

وقال روكامبول وقد تمالك روعه :

ـ هذا اسم لم أسمع به من قبل ..

واذ انتهى حديث السرقة أقبل أنطوان على المركيز يقبل يده من جديد وهو يقول :

ـ سيدى .. سيدى المحبوب .. الحق انه كان مستحيلا على أن اعرفك .. فقد تغيرت كثيرا عن عهد الطفولة ..

فقال فابيان :

ـ ان الاقامة فى الهند بجوها الحار قد خلقت منه رجلا آخر

ـ هذا صحيح .. انك الآن يا سيدى شخص آخر ..

فقال روكامبول فى نفسه :

ـ يا للأحمق !.. انى اخشى ان يفضحنى هذا العجوز المخرف ..!

وفجأة قال فابيان :

ـ ان جوزيف زعم أن هذا الشاب امرأة متنكرة ..

فقال روكامبول :

ـ هذا ما لا علم لى به .. ومهما يكن من الأمر فقد احسن صديقى انطوان بابلاغه مركز البوليس ..

***

بعد ساعتين من هذا الحديث كان روكامبول قد لاذ بمخدعه وهو يقول فى نفسه :

ـ الآن لم يعد لى شك فى ان هذا الشاب الأشقر النحيف انما هو باكارا .! وما تركت هذه البطاقة الا عمدا لتنبهنى الى انها فى اثرى .! دائما باكارا .! دائما باكارا .! ليت شعرى ما الذى تبغى منى هذه المرأة .؟

وراح يستعيد الى ذهنه بعض الذكريات .! انه لم ينس انها هى التى افسدت أمره يوم كان ينتحل اسم الفيكونت دى كامبول ، فهل جاءت اليوم لكى تحبط خطته الجديدة .

وراح يقول فى نفسه :
ـ ليت شعرى لماذا سرقت الصورة ؟
وذكر فجأة المركيز دى شامرى الحقيقى ..! منذ عامين تقريبا تركه فى حفرة فى تلك الجزيرة الصخرية وهو يعتقد أن هذه الحفرة ستكون قبره الذى سيضم رفاته ..
وأخذته الرعدة وقال :
ـ رباه .! أتراه قد نجا من الموت .. وهذه الصورة .. لماذا سرقتها باكارا ..! هل نجا المركيز الحقيقى ..! وهل لذلك علاقة بسرقة الصورة ؟
وقرع الباب فى هذه اللحظة ودخل انطوان .
كانت الساعة اذ ذاك قد تجاوزت منتصف الليل!
وقال انطوان العجوز :
ـ معذرة يا مسيو البرت لدخولى عليك فى مثل هذه الساعة المتاخرة من الليل . ولكنى سمعت وقع اقدامك وأنت تمشى فى الغرفة . فخطر لى أن من المحتمل أن تكون فى حاجة الى شىء ..
فقال روكامبول وهو يبتسم :
ـ شكرا يا صديقى .. انى لست فى حاجة الى شىء .
وهم انطوان بالانسحاب فقال له روكامبول :
ـ اجلس يا صديقى لنتبادل الحديث برهة
وجلس انطوان وجعل يحدق فى روكامبول ثم قال :
ـ من الغريب يا مسيو البرت انك تغيرت كثيرا .
ـ اتظن ذلك ؟
ـ نعم .. وعهدى بالرجل ان يحتفظ بشىء من آثار طفولته ..
ـ وهل شذذت أنا عن هذه القاعدة ؟.
ـ هذا ما أرى .! ليس فيك شىء على الاطلاق من ملامح الطفولة بل ان لون العينين قد تغير !.
وامتقع وجه روكامبول تحت نظرات الوكيل الفاحصة .
وقال الوكيل مستطردا :
ـ انى كلما نظرت اليك خيل الى انهم خلقوا منك رجلا آخر فى بلاد الهند .
فقال روكامبول :
ـ أرجوك أن تكون وصيفى هذه الليلة وأن تساعدنى على نزع حذائى . فانى متعب واريد أن آوى الى فراشى .
وجلس انطوان على الأرض وشرع ينزع حذاء سيده وجوربه وفجأة صرخ دهشا .
وقال روكامبول يسأله :

ـ ماذا دهاك ؟.

فقال انطوان :

ـ ماذا دهانى ؟. اليست هذه هى ساقك اليمنى, !.

ـ طبعا

ـ بهذه الساق . . بين الركبة والفخذ ..

وانبعث روكامبول واقفا..

وجعل انطوان يحدق فيه .

وقال روكامبول :

ـ ما هذه الاقوال التى تهرف بها .؟

ـ الحقيقة .!

وما هذا الذى بين الركبة والفخذ .!

ـ لطخة حمراء

ـ أمجنون أنت .؟

ـ كلا .. انا لست مجنونا .. انى أعرف هذه العلامة .!

ـ فليكن .. لقد اختفت بمرور الزمن .. الا تعـلم أن آثار الجروح والندوب تزول بكر الأعوام .؟

فصاح انطوان :

ـ انك تكذب ..! فما كانت هذه اللطخة ندبا أو اثرا لجرح ..! انها لطخة طبيعية لا تمحى ..!

فقال روكامبول :

ـ هذا عجيب .! أتجسر على ان ترمينى بالكذب ..!

ـ انك لست المركيز دى شامرى .! انك لست مولاى ..!

وأراد روكامبول أن يخدعه فابتسم وقال :

ـ يا للغرابة ..! ألا تعلم ايها العجوز المخرف ان فى وسعى أن اقذف بك من النافذة .! ولـكنى ابقى عليك احتراما لشيخوختـك ولانك ربيتنى وأنا طفل صغير ..

فقال انطوان وهو ينظر الى روكامبول :

ـ أرنى اذن صدرك .

ـ ولماذا ..؟

ـ أرنى صدرك

ـ أتصدر الى امرا ؟

ـ يجوز

ـ يا للقحة ..!

فقال انطوان :

ـ سيدى .. اذا كنت كاذبا فأرجوك أن تقتص منى . ولـكى

تنجلى الحقيقة أرجوك أن تكشف لى عن صدرك . لقد رايتك عاريا أكثر من مرة . وأعرف فى صدرك علامة خاصة .

ولم ير روكامبول مناصا من الاذعان فكشف عن صدره . وعلى ضوء الشموع فحص انطوان هذا الصدر ثم هز رأســـه وقال فى عناد :

ــ لو انك كنت المركيز دى شامرى لكان لك فى صدرك تحت ثديك الايسر خال أسود .

ثم صاح فى صوت مضطرب :

ــ انك لست المركيز دى شامرى .! ولا ريب انك قتلتـــــه وانتحلت شخصيته ..

فصاح روكامبول :

ــ اصمت ..! اصمت ..!

وانقض على العجوز واطبق بيديه على عنقه .

ـ ٥ ـ

كان المركيز دى شامرى فى شرخ الشباب موفور القوة وثيق البنيـــة . وكان الغضب قد ضاعف من قوته فبـــدا كالوحش الهائج . لقد ارتد فى هذه اللحظة روكامبول السفاك تلميذ اندريا الشيطان .!

أما انطوان فكان على تقدمه فى السن صلب العود يحـــاول أن يفلت من خصمه وأن يتغلب عليه . وكان لا زال مثابراً على الصياح فتخرج الكلمات من بين شفتيه متحشرجة مكتومة .

وصاح روكامبول :

ــ اصمت والا قتلتك .!

وظل انطوان على مقاومته ونضاله . فعاد روكامبول يقول :

ــ أهل القصر جميعا نيام . فلو انى قتلتك لما درى بأمرك أحد .

وطرحه على الفراش فتهاوى فوقه بلا حراك . وقال له :

ــ اذا لم تقسم على الكتمان خنقتك بلا رحمة .

ولكن النظرة التى القاها انطوان على روكامبول دلته على انه لن يكتم سره .

ــ اصغ الى .! ان الدنيا بأسرها تعتقد اننى المركيز دى شامرى .. فقد مات المركيز الحقيقى .. فلم لا تصمت انت أيضا .؟ اكتم سرى امنحك من المال ما تشاء .! سلنى ما شئت ..!

وخفف روكامبول الضغط هنيهة عن عنق انطوان . فلم يسمع من بين شفتيه الا هذه الصرخة الداوية

ـ يا قاتل .! الى الوراء أيها القاتل .!
ـ الويل لك .! أنت الجانى على نفسك .! ساقتلك .!
وراح يضغط على العنق من جديد وهو يقول:
ـ ألا ترى أيها الاحمق انني قوى شديد البنية .؟ اننى الآن في الثامنة والعشرين من العمر . ولدى الاوراق المثبتة لشخصيتى الجديدة المنتحلة .. فما يضيرك ان تصمت وان تجارى الآخرين.!
الا تريد .؟ الويل لك .! سأخنقك .! هذا مصيرك .!
وهم بأن يخنقه . ولكنه امسك بغتة وقال فى نفسه:
ـ لو انى خنقتك لوجدوا آثار اصابعى على عنقك فى الغد ..!
كلا .. ينبغى ان اقتلك بطريقة أخرى لا تهتك سرى .
ودار ببصره فى أرجاء الغرفة فراى على الجدار كيسا صغيرا من ذلك الطراز الذى تحفظ فيه الدبابيس فمد احدى يديه وتناول دبوسا طويلا متينا . وهو يقول:
ـ ساقتلك قتلة يظن معها الناس انك مت بالسكتة القلبية .
ثم طرح العجوز على وجهه فوق الفراش وغرز الدبوس فى موضع معين فى القفا بحيث يلمس أعصاب المخ فقضى عليه لساعته.
ولم تنبثق من موضع الدبوس الا نقطة صغيرة من الدم مسحها روكامبول فلم يعد لها اثر .
وقال فى نفسه باسما:
ـ الآن سيظن من يفحصك انك مت بالسكتة القلبية . ولن يكشف الأمر الا طبيب حاذق بارع ، وفى هذه القرية المنعزلة لا يوجد الا أحقر الأطباء شأنا ..
ثم راح ينظر الى الجثة ويقول:
ـ أيها الاحمق .! أما كان أولى بك ان تجارينى فى ادعائى بدلا من ان اقتلك .. لقد كنت على استعداد لان امنحك من المال ما تشاء ولكنك جنيت على نفسك بحماقتك .!
والآن ما عساى أصنع بك .؟
ينبغى ان احملك الى غرفتك واضعك على فراشك حتى اذا وجدوك فيه جثة هامدة فى الغد قالوا: شيخ فى السبعين ادركه ضعف القلب فمات بالسكتة .!
ولكن أين غرفتك يا ترى ؟ تلك هى المشكلة .! آه .! عندما طرقت بابى قلت لى أنك سمعت وقع خطواتى وأنا اتمشى فى غرفتى .!
وهذا معناه انك لاتقيم فى جناح الخدم ، وان غرفتك فى هذا القصر وانها واقعة فى الدور الارضى وربما تحت غرفتى مباشرة والا لما سمعت خطواتى .!

وفتح روكامبول الباب فى حرص وحذر وسار فى الدهليز وهبط الدرج . حتى اذا بلغ الطابق الارضى سار فى الدهاليز وهو يقترب من أبواب الغرف ويسترق السمع أو ينظر من خصائص الباب .

ورأى نورا ينبعث من احدى الغرف فقال فى نفسه :

ــ يغلب على ظنى أن هذه هى غرفة انطوان .. ولا سيما هى تكاد تقع تحت غرفتى .

ودفع الباب فى رفق ودخل .

كان الفراش منفوشا . ولكنه كان خاليا . وهناك على طاولة قريبة أخذت عينه رسالة مفضوضة تحمل على غلافها اسم انطوان .

ولم يعد لديه شك فى أن هذه الغرفة المنشودة .

وارتد الى مخدعه فحمل الجثة على كتفه وهبط بها مسرعا فوضعها على الفراش وجردها من الثياب الخارجية وألبسها ثياب النوم . ونشر فوقها الغطاء .

ولقد فعل كل هذا بذلك الهدوء المأثور عن أستاذه اندريا .

وجعل يدير عينيه فى الغرفة ليستوثق من أنه لم يغفل عن شىء حتى التفصيلات الهامة .

ثم قال :

ــ والآن ينبغى أن أوصد الغرفة من الداخل بالمزلاج

وأوصدها بالمزلاج ووثب من النافذة الى الحديقة ثم رد النافذة مغلقة كما كانت بواسطة سلك دقيق سدده الى مزلاجها ثم جذبه وهو فى الخارج .

ومشى الى مخدعه مطمئن البال وانطرح على فراشه . وهو يقول فى نفسه :

ــ قد نجوت ..! الآن لن يرتاب أحد فى ان انطوان مات بالسكتة القلبية ..!

ــ ٦ ــ

والآن لنرجع الى اسبانيا .

بعد انقضاء خمسة عشر يوما على تلك المأدبة التى أقامها القومندان بدرو لفرناند روشيه وزوجته كانت مدينة قادس ترفل فى حلة من الانوار والزينات . وكانت دار الحكومة كأنها شعلة متألقة من النور . وذلك ان الملكة حلت بالمدينة منذ أسبوعين واتخذتها مقاما لها .

وكنت ترى منذ الساعة التاسعة صباحا رتلا من السيارات يقف بدار الحكومة ويهبط منها النبلاء وكبار الموظفين ليقدموا الى ملكتهم المحبوبة شعائر الولاء والاخلاص .

وفى ذلك اليوم أقام المجلس البلدى حفلة راقصة خيرية يخصص دخلها لمساعدة الفقراء . فكنت ترى التزاحم على حضورها بالغا أشده اذ وعدت الملكة بأن تحضر الى الحفلة عند منتصف الليل لتمضى فيها بعض الوقت .

وفى نحو الساعة التاسعة مساء وقفت بباب القصر مركبة من طراز فرنسى هبط منها رجلان وامرأة .

وكان أحد الرجلين يرتدى ثيابا من الزى الذى كان شائعا على عهد لويس الخامس عشر . يتأبط ذراع المرأة .

كان هذان هما مسيو فرناند روشيه وزوجته هرمين .

أما الرجل الذى كان فى رفقتهما فكان باهر الجمال وفى عنفوان الشباب . ولا يمكن أن تعدو سنه العشرين . وكان كصاحبيه غير مقنع الوجه .

وجعل الحاضرون يتأملونه معجبين بجماله الباهر . وقال أحدهم لرفيقه :

ـ من يكون هذا الشاب الذى يرتدى ثيابا روسية ؟؟

ـ انه روسى الجنسية فعلا

ـ حقا .. وما أسمه ..؟

ـ آه .. هذا ما لا علم لى به .. أن الاسماء الروسية لا تعلق بالذهن كما تعلم لطولها وغرابتها .

ـ وهل حل بقادس منذ زمن ؟

ـ منذ ثلاثة أيام ..

ـ وأين يقيم ؟

ـ فى فندق استير

ـ أهذا كل ما تعرف من أمره ؟

ـ هذا كل ما أعرف .

ـ لعمرى انه أجمل من النساء .

وفى الوقت الذى كان فيه هذا الحديث يدور بين هذين الاسبانيين كان الشاب الروسى يتجول فى أرجاء القاعة كانما يبحث عن شخص معين حتى اذا رأى الكابتن بدرو قومندان السجن حياه وسارا معا الى الحديقة . وهناك قال الروسى :

ـ ماذا فعلت ..؟ انجحت .؟

ـ نعم يا سيدتى .

ـ صه .! ارجوك الا تذكر شخصيتى خشية أن يسمعك أحد

ـ فليكن اذن يا سيدى .!

ـ خبرنى بما فعلت .

ـ لقد قابلت جلالتها والتمست منها الا تطرح على أى سؤال فأجابت ملتمسى ومنحتنى تفويضا مطلقا أفعل به ما أشاء . وكان حسبى ان أذكر لها أن الامر متعلق بشرف أسرة من أعرق أسرات اسبانيا لتجيبني فورا الى ما سألت .
ـ اذن أعرنى سمعك لأذكر لك الخطة التى عولت عليها . سيحضر الآن ويتجول فى القاعة دون أن يرفع قناعه
ـ حسنا .
ـ وقبل منتصف الليل بربع ساعة سيغادر القاعة
ـ وبعد ذلك .
ـ ستحضر جلالتها الى المرقص . فاذا ما انصرفت رجع ثانية .
ـ ورفع قناعه .؟
ـ كلا .. فهو غير مضطر الى رفعه الا فى حضرة الملكة . وكذلك سيغادر الحفلة أثناء وجودها . هذا الى انه ليس من اللائق أن يكون موجودا فى مكان تشرفه جلالتها .
ـ أصبت .. وبعد انصراف جلالتها سيحضر هو . ولكن هى ؟
ـ ستبقى فى الحفلة .
ـ على رغم الحداد .؟
ـ طبعا .. انها مضطرة الى الحضور لان جلالتها عينتها وصيفة شرف فى البلاط .
واخرج الروسى قناعا من جيبه وضعه على وجهه الجميل وهو يقول :
ـ ولكن خبرنى يا سيدى الكابتن . اموقن انت من انها سترتدى ثوبا ذا مربعات سوداء .
ـ نعم .. انى موقن من هذا
ـ وهو .؟
ـ سيظل فى ثيابه العادية وعلى وجهه قناعه حتى لا يعرفه أحد . وسيظن القوم انه انما لبس هذا الثوب للتنكر .
ورجع الكابتن بدوو والشاب الروسى الى القاعه . ومضى الضابط الى لقاء فرناند روشيه وزوجته . على حين جلس الروسى على أحد المقاعد بالقرب من باب القاعة .
وبعد بضع دقائق شوهد رجل فى عنفوان الشباب يدخل القاعة وعلى وجهه قناع سميك .
وكانت ايماءات هذا الرجل ومشيته وحركاته تدل على انه من النبلاء . وقد انتهبته الانظار من كل جانب بمجرد دخوله لغرابة ثيابه . اذ كان مرتديا ثياب المجرمين المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وقال أحد الحاضرين :
ـ لا شك انه انجليزى . فالانجليز هم وحدهم الذين يعمدون الى مثل هذا الشذوذ فى اختيار الثياب التنكرية .
والتفت أحد الحاضرين الى الكابتن بدرو قومندان السجن وقال :
ـ هل أطلقت أحد مجرميك يا قومندان ليحضر الحفلة ؟
فضحك القومندان وقال :
ـ ولكن ليطمئن بالك فانه مجرم أليف لا يؤذى أحدا .!
ونهض الشاب الروسي واقترب من هذا السجين وقال له :
ـ أتحب أن تلعب الورق يا سيدى ..؟
وارتعد السجين وقال :
ـ نعم
ـ اتبعنى اذن
وسار الرجلان الى قاعة أخرى لم تجعل للرقص . وقد انتشر فيها بعض الافراد يتبادلون الحديث فى صوت منخفض
وهناك على مقعد منزو كانت فتاة ترتدى ثوبا ذا مربعات سوداء .
وأشار الروسى الى الفتاة وقال للسجين :
ـ ها هى ذى
واتجها الى ناحيتها . وكانت الفتاة غارقة فى خواطرها فلم تشعر باقترابهما . فلما رفعت رأسها ورأت ذلك الرجل فى ثياب المجرمين أخذتها الرعدة . فقال الشاب الروسى :
ـ اطمئنى يا سيدتى . فان المجرمين الذين يغشون هذه الحفلات لا يؤذون أحدا .
وذكرت الفتاة انها فى حفلة تنكرية وأن هذا الثوب تنكرى فابتسمت :
واستطرد الروسي يقول لها :
ـ انك قادمة من فرنسا يا سيدتى ! أليس كذلك .؟
فقالت فى استغراب :
ـ أو تعرفنى اذن .؟
ـ نعم . أتحبين ان أذكر لك اسمك .؟
ومال الروسى الى أذنها وهمس يقول :
ـ انك دولوريس كونسبسيون دى سالاندريرا ..
وجلس الروسى الى جانبها وهو يقول باللغة الفرنسية :
ـ لقد أبحت لنفسى هذه الحرية لانك قادمة من فرنسا .

ـ أفرنسى أنت اذن يا سيدى ..؟
ـ كلا .. انى روسى .. ولكن صديقى هذا فرنسى ..!
وأشار الى السجين فانحنى هذا فى احترام . وتناول يد الفتاة فقبلها فدعته الى الجلوس .
وقال الروسى :
ـ ان صديقى يا سيدتى سجين فى هذه الدنيا . وهو من أنبل الناس وأشرفهم .
ـ يسرنى اذن أن أتعرف اليه .

ونهض الروسى واقفا واستأذن فى الانصراف . ولكن قبل أن يبتعد همس فى أذن السجين :
ـ احذر أن تذكر لها أسمك .
ولما خلت دولوريس الى السجين قالت له :
ـ أفرنسى أنت يا سيدى ؟
ـ نعم يا سيدتى .
ـ وهل أنت قادم من باريس ؟
ـ كلا .. بكل أسف .. انى لم أر وطنى منذ عشرين سنة .
ـ يا له من زمن طويل .! كم سنك اذن ؟
ـ انني فى الثلاثين .
ـ اذن فقد غادرت وطنك وأنت فى العاشرة ؟
ـ نعم .. وا أسفاه ..!
ـ وهل تقيم الآن فى اسبانيا ..؟
ـ لقد حللت بقادس منذ عام تقريبا . أما قبل ذلك ...
وتردد برهة فقالت الفتاة :
ـ تكلم يا سيدى . انى مصغية اليك .
وفى صوت حزين النبرات قال السجين :
ـ سيدتى .! قد تجمع احدى الحفلات الراقصة بين امرأة مثلك ترتدى ثياب الحداد . ورجل مثلى ليس له الحق فى ارتدائها وان تمنى ذلك .
ـ ماذا تعني ..؟

ـ اعنى ان فى قلبى من الاحزان ما كان ينبغى معه أن ارتدى ثياب الحداد ..!
ـ يا لله .. اذن فقد تعذبت .
فند عن صدره تنهدة عميقة وقال :
ـ سيدتى .. لقد سألت صديقى الروسى أن يقدمنى اليك لعلمى انك قادمة من باريس .. وفى باريس الشىء الوحيد الذى

يهز عواطفي .! فى باريس الامل الوحيد الذى من أجله أعيش !؟ وكم يسعدنى ان أتحدث عن الوطن الذى لم أره مع أولئك الذين رأوه وعاشوا فيه ..! لقد أنبأونى ياسيدتى ان لك من طيبة القلب مثل ما لك من الجمال . فلم أتردد فى أن أسألهم تقديمى اليك .

ومرت لحظات من السكوت . كان جمال الفتاة قد أثر فى نفس السجين حتى أصبح مفتونا بها .. وكان هذا الحزن المخيم على وجه السجين .. وهذه النبرات المفجعة البادية فى صوته قد نالت من الفتاة فهزت قلبها .

وقالت :

ـ سيدى .. سلنى ما تشاء .

ـ حدثينى عن باريس ..!

ومرت ساعتان والفتاة تتكلم . والسجين يصغى اليها فى انتباه شديد .

حدثته عن باريس فى طلاقة ولباقة حتى خيل اليه أنه كان يعيش فى تلك البلاد .

وفجأة دقت الساعة ايذانا بانتصاف الليل .

وأجفل السجين وانبعث واقفا .

- ٧ -

نظرت اليه دولوريس فى دهشة واستغراب وهو يستأذنها فى الانصراف . وقالت :

ـ والى أين تذهب يا سيدى ؟

فوضع اصبعه على شفتيه وقال :

ـ هذا سرى فاسمحى لى أن أكتمه .!

ثم تناول يد الفتاة فقبلها وقال :

ـ انك لن تغادرى المرقص قبل الساعة الثالثة ؟

ـ ولماذا .؟

ـ لانى سأعود اليك فى الساعة الثالثة على الاكثر

ثم دار على عقبيه وابتعد دون أن يزيدها ايضاحا .

ولما خلت دولوريس الى نفسها قالت :

ـ هذا عجيب .! لقد أثر فى نفسى لقاء هذا الشاب تأثيرا شديدا وبت أعطف عليه وأرثى لهذا الحزن الذى يفترس قلبه .! ليت شعرى ما الذى يحزنه .! الا ليتنى أستطيع أن أسرى عنه !

واذ همت الفتاة بأن تغادر القاعة دخل الشاب الروسى الذى قدم اليها السجين . وأقبل عليها يقول :

ـ أين ذهب صديقي يا سيدتى ؟
ـ لقد انصرف فجأة عندما دقت الساعة نصف الليل .
ـ اني أعرف السبب .
ـ حقا ..؟
ـ ولكنه سره فلا يسعنى أن أفشيه .
وعضت دولوريس على شفتها . واسترسل الروسى :
ـ ومع ذلك فلو انك سألتنى أسرارى الخاصة لما ترددت فى أن أفضى بها اليك .
ـ اذن فلك أسرار أيضا .؟
ـ وانها والله لأسرار عجيبة .! وهى ذات صلة وثيقة بأسرارك .
فنمت ملامحها على دهشة وقالت :
ـ عجبا .! ولكنى لا أعرفك يا سيدى .!
ـ أنت مخطئة فى هذا فقد التقينا فى باريس .
ـ حقا ..؟
ـ ولى أصدقاء كثيرون من أخلص أصدقائك يا سيدتى .
ـ هذا عجيب .
ـ وفى وسعي أن أقص عليك شطرا من تاريخ حياتك .
فقالت الفتاة الاسبانية وقد داخلها شيء من القلق :
ـ ومن أنت يا سيدى ؟
ـ انا يا سيدتى الجملية فى مرقص تنكرى . واظن أن هذا القناع يخولنى الحق فى أن اكتم شخصيتى دونك .. ولكننى سأعوضك عن ذلك بأن أكشف لك أسرارا خطيرة حتى تثقى بأن لى بك صلة وثيقة .. فأنا أعرف مثلا كيف مات الدون جوزيه .
وأطلقت دولوريس صرخة حادة . واسترسل الروسى :
ـ وأعرف أيضا كيف مات الدوق دى شاتوميلى .
وكانت دولوريس لم تعلم بموته بعد لوجودها فى اسبانيا فصاحت :
ـ رباه .! وهل مات الدوق ؟.
ـ نعم .! فى اليوم الذى سافرت فيه أنت ووالدك الدوق الى قصر دامول الريفى .
ـ ولكن من انت يا سيدى .؟ من انت الذى تعرف كل هذه الاسرار .؟ ما اسمك .؟
ـ اننى أدعى ارتوف .
فصاحت :
ـ ارتوف .!

ـ انه اسم سبق أن سمعته .! انني أمت بصلة القرابة الى الكونت ارتوف الذى خانته امرأته فأصيب بالجنون ساعة أن هم بمبارزة عشيق امرأته رولان دى كلايبه .

ـ انى أعرف هذه القصة .

ـ ولكنى سأطلعك على شيء تجهلينه

فقالت دولوريس فى غير مبالاة :

ـ تكلم يا سيدى كيف شئت .

ـ هيا بنا الى الحديقة اذن .

ـ ولماذا !.

ـ لأريك شخصا تعرفينه ولا يخطر لك ببال انه فى قادس

وابتسمت الفتاة وقالت :

ـ الحق يا سيدى انك لغز غامض !.

ـ ألم أبرهن لك منذ دقائق على انى مطلع على بعض أسرارك .؟

وفى وسعى أن أضيف الى ما قلت انك كتبت بالامس خطابا الى المركيز دى شامرى

وأجفلت الفتاة وقد اشتد خفقان قلبها .!

ـ عجبا ..! من يكون هذا الرجل .؟

وفجأة خطر لها أن من المحتمل أن يكون هو المركيز دى شامرى نفسه ..! ولكنها ما لبثت أن استبعدت هذه الفكرة فان المركيز ليس على مثل هذه النحافة .

وأخذ الشاب الروسى بيدها وهبط الى الحديقة ودفع باب حديقة الشتاء الزجاجية .

وهناك على مقعد .. فى القاعة الشتوية رأت دولوريس امرأة مقنعة

ونهضت المرأة وحيت دولوريس

وقال الشاب الروسى مخاطبا المرأة :

ـ والآن انزعى قناعك .

ونزعت المرأة قناعها ، وما رأتها دولوريس حتى صاحت :

ـ الكونتس أرتوف .!

وابتسم الشاب الروسى وهو يمد يده الى قناعه

ـ والآن تأملى وجهى .!

وما نظرت اليه الفتاة الاسبانية حتى صرخت مرة أخرى :

ـ الكونتس ارتوف .!

كان أمامها امرأة لها وجه الكونتس ارتوف . ورجل له الوجه ذاته

أمامها شخصان .. كل منهما هو الكونتس ارتوف .!

وقال الشاب الروسى الذى لم يكن الا باكارا :
ـ أينا الكونتس ارتوف .؟
فقالت الفتاة الاسبانية :
ـ عجبا .! أتراني حالمة .!
ـ بل قد استيقظت الآن يا آنستى ..! استيقظت على الحقيقة المكشوفة .!
ـ ماذا تعنين .؟
ـ أعنى اننى أنا الكونتس ارتوف الحقيقية .
ـ وهذه المرأة .؟
ـ أخت غير شرعية لى .. وتشبهنى شبها تاما .! سليها تنبئك انها هى التى اتخذها مسيو رولان دى كلاييه عشيقة له واننى بريئة من هذه الزلة .!
فقالت ريبيكا :
ـ هذا صحيح .
وتحولت الآنسة دى سالاندريرا الى الكونتس ارتوف وقالت :
ـ كونتس . اصفحى عنى .! لقد احتقرتك كما احتقرك الآخرون ولكنى أدركت غلطتى ..! كما سيدركها الناس جميعا .
فهزت باكارا رأسها بحزن وقالت :
ـ لم يحن الوقت بعد لاماطة اللثام عن هذا السر .
ـ ولماذا .؟
ـ لأن أمامى قبل أن أذود عن شرفى أن أذود عن شرف أسرة من أعرق أسرات اسبانيا .
ـ ماذا تعنين .؟
ـ انك تقيمين الآن مع الدوقة أمك فى قصر أسقف غرناطة .! أليس كذلك .!
ـ حسنا .. أرجوك أن تكونى غدا فى مثل هذه الساعة فى شرفة القصر المطلة على البحر .
ـ ألا تذكرين السبب ؟
ـ ليس الآن .. ولكن حسبك أن تعلمى انك مندمجة فى قصة رهيبة .
ـ رباه !. انك تخيفيننى .!
وأعادت باكارا القناع الى وجهها ومشيت الى الباب وهى تقول :
ـ قد اراك الليلة مرة أخرى . ولكن لا تنسى موعدك مع صديقى السجين الذى التقيت به فى المرقص .

فقالت الفتاة الاسبانية :
ـ ليت شعرى أى سر بينى وبينه .؟

ـ لا شيء .. وكل شيء .! وأرجوك أن تقــولى له أنك قابلت الكونتس وانها أباحت لك أن تطلعنى على بعض سرك .
ثم دعت ريبيكا الى مرافقتها وهى تقول :
ـ انتظريه هنا فسأرسله اليك .
وانصرفت المرأتان على حين تهاوت دولوريس على أحد المقاعد وقد افترستها الخواطر .
ما هذه الاسرار العجيبة التى تحوطها .! وما شأن ياكارا فى الامر كله .!
وانتبهت من خواطرها على وقع خطوات خفيفــــة . ثم فتح الباب ودخل السجين .
واذ رأته ارتعدت . ومدت اليه يدها تصافحه ودعتـــــه الى الجلوس . ثم قالت :
ـ لقد قابلت الكونتس . وقد أباحت لك أن تطلعنى على بعض سرك .
وارتسمت على شفتى الشاب ابتسامة حزينة وقال :
ـ انها أسرار أليمة مفجعة .
وفجأة وقبل أن يمضى فى قصته .. سمع وقع خطوات ثقيلة خارج القاعة الشتوية .
وانعقدت قطرات من العرق على جبين الشاب .
وفتح الباب فى حركة عنيفة وبدا على عتبته رجل فى ثيـــاب حراس السجون .
وقال الحارس يخاطب السجين :
ـ هيا يا رقم ثلاثين .! ألا تعلم أن موعــد عودتك الى السجن الساعة الرابعة .! ها قد حانت ساعة العودة .!
ثم غادر الحارس القاعة وهو يقول :
ـ عجل واتبعنى .!
وامتقع وجه دولوريس وقالت فى جزع :
ـ ما معنى هذا .؟ من يكون هذا الرجل؟!

فأجابها الشاب فى صوت رقيق حزين :
ـ لقد جاء يبحث عنى .
ـ عنك أنت .! عنك أنت .!
فلم يجب على سؤالها وانما حسر بنطلونه عن ساقه فانكشف عن حلقة من الحديد حول كاحله .

وقال في صوت حزين :
ـ سيدتي ..! هذا الرجل هو حارسي ..! وهذه الحلقة هي التي أشد منها الى السلاسل في الليمان ..! وهذا الثوب ليس ثوبا تنكريا ..! انني سجين في الليمان محكوم على بالاشغال الشاقة .! انني رجل بلا وطن .. ولا اسم ..! وهناك لا يعرفونني الا باسم « رقم ٣٠ »

ـ ٨ ـ

كان هذا الموقف مفاجأة مسرحية رائعة ..!
ولكن دولوريس لم تصب بالاغماء ..! ولم تحاول ان تفر هاربة من هذه القاعة التي جمعت بينها وبين ذلك السجين ..!
قد يكون سجينا .. وقد يكون محكوما عليه بالاشغال الشاقة .. ولكنه لابد ان يكون نبيلا ..!
ان هذه الوداعة لا يمكن ان تكون لمجرم ..!
نظرت دولوريس الى الفتى ثم قالت :
ـ سيدى ..! لا شك انك ذهبت ضحية مكيدة مدبرة ببراعة ..؟
وأشرق وجه السجين وقال .
ـ سيدتي .. انني سعيد بانك لم تعتقدى انى مذنب ..!
ـ مذنب ..! أنت ..! محال ..! من كان له صوتك وسمات وجهك وصفاء عينيك لا يمكن ان يكون مجرما .. يجب ان تروى لى قصتك يا سيدى ..! وسأمضى الى الملكة فاجثو أمامهاواتوسل اليها ان تعفو عنك
فهز رأسه وقال
ـ ليس الآن يا سيدتى ..!
ـ ليس الآن .! وكيف هذا !
ـ ان حريتى لا تتوقف على الملكة ..!
ـ ما هذا الذى تقول ..؟ على من تتوقف اذن ؟
ـ عليك أنت ..!
وادهشها هذا الجواب . فقال :
ـ ولكن اسمحى لى ان أكتم تفاصيل الامر دونك فلم يحن الوقت بعد للافشاء
فغمغمت :
ـ رباه ..! هل انا حالمة ام مجنونة ..! تكلم يا سيدى .. اتوسل اليك .. كم مضى عليك فى هذا ..
وامسكت فقال :

ـ اننى فى ليمان قادس منذ أحد عشر شهرا وحكم علـى بالسجن خمسة أعوام .
ـ وما جريمتك ..؟
ـ القرصنة
ـ أنت ..؟
ـ لقد كنت فى باريس طبعا حين نشرت الصحف قصتى .. لقد اعتقلت سفينة حربية اسبانية مركبا يشتغل رجالها بالاتجار فى العبيد
ـ نعم .. نعم انى أذكر هذه القصة
ـ لقد كنت أنا مساعدا لربان هذه المركب
وسكت هنيهة ثم قال :
ـ لا يسعنى يا سيدتى ان اقص عليك فى الوقت الحـاضر الا شطرا من قصتى .. اذ يجب أن أكتم عنك اسمى . وألا أذكر لك المكان الذى امضيت فيه شبابى ولكن حسبك أن تعلمى انى قضيت عشرين سنة بعيدا عن وطنى
ـ اذن تكلم . قص على ما تشاء
وبعد سكتة قصيرة واصل السجين حديثه فقال :
ـ منذ عامين وصلت انجلترا على ظهر احدى البواخـــر . ووجهتى فرنسا بعد ان غبت عنها ثمانية عشر عاما . وفى الميناء قدمت الى المراقبين اوراقى الشخصية التى تثبت اسمى وتثبت انى ضابط فى البحرية البريطانية
ثم واصلت الباخرة سفرها الى فرنسا . ولكن البحر هـاج واشتدت العاصفة . فغرقت الباخرة ولم ينج منها الا اثنـان : انا ومسافر شاب فى مثل سنى
وروى لها ما كان من صعوده الى الجزيرة الصخرية وكيف سقط فى الحفرة . ولكنه كتم عنها اسمه . ولم ينبئها بأن زميله سرق أوراقه أو تخلى عنه عمدا ، ومازال ماضيا فى روايته حتى انتهى الى اعتقال المركب السويدية ومحاكمته أمام مجلس عسكرى ودخوله الليمان .
فلما انتهى من قصته قالت الفتاة :
ـ ولكن لماذا لم تسرد هذه القصة لقضاتك ؟
ـ لقد سردتها فلم يصدقونى
ـ وأين أوراقك الشخصية ..؟
ـ لا ريب اننى فقدتها فى الجزيرة الصخرية
ـ واسرتك فى باريس ..؟ اليست لك أسرة ؟؟

ـ نعم لى أم وأخت ..
ـ لم لم تحاول الالتجاء اليهما ؟
ـ لقد رويت قصتى هذه لقومندان السجن
ـ وماذا فعل ؟
ـ لقد صدقنى

ـ وهل كتب الى باريس ؟
ـ نعم .. وجاء الجواب باننى أفاق مدع .. وان الرجل الذى انتحلت اسمه يقيم فى باريس
فصاحت الفتاة :
ـ هذا محال ..!
ـ ولكنه الحقيقة .!.
ـ وكيف ..
وسكت السجين هنيهة ولكن قبل ان يجيب فتح الباب مرة أخرى ودخل الحارس وهو يصيح :
ـ لقد ابطأت على .. هيا يا رقم ٣٠
ونهض السجين واقفا وهو يقول :
ـ وداعا يا سيدتى .! وشـــكرا على ما لقيت منك من عطف وشفقة
ـ ولكن كيف ترحل بهذا الشكل !.
ـ لا مفر من هذا !. ان السلاسل تدعونى .! وداعا !
فصاحت :
ـ سأقابل القومندان وأتحدث اليه فى أمـرك .! انه ابن عم الجنرال «ك» وهو صديق حميم لأبى !
فقال السجين :
ـ ارجوك يا سيدتى ان تعدلى عن مخاطبة القومندان .. هناك من يسعى الى اطلاق سراحى . وأخشى أن يفسد هذا المسعى أى تدخل جديد .. وداعا .! وربما الى اللقاء ؟

ولبثت الفتاة بعد انصرافه غارقة فى خواطرها وهى تستعيد الى ذهنها ما سمعت . وكلما فكرت فى الأمر زادت الحـــوادث غموضا وابهاما
واخيرا زايلت مكانها ومضت الى القصر . فوجدت ان الشطر الاكبر من المدعوين قد انصرف ولم يبق الا عدد قليل . ودخلت الى القاعة التى رأت فيها باكارا للمرة الاولى متنكرة فى زى الرجال وهى ترجو ان تجدها هناك لتسألها جلاء هذه الاسرار . ولـكنها الفت القاعة خالية ورأت خادما منهمكا فى اطفاء الشموع .

واقترب منها الخادم وانحنى أمامها . ثم رفع رأسه فـاذا هو الاسبانى زامبا ..
فصاحت دولوريس
ـ زامبا . انت هنا!
ـ انني الوصيف الخاص لمدير المجلس البلدى!
ـ منذ متى ؟!
ـ منذ وفاة الدوق دى ميلى .. لقد مات منذ شهرين .
ـ وكيف مات ؟.
ـ ذكرت الصحف انه مات بالجمرة الخبيثة .
ـ وكيف اصابته .؟
ـ لقد ذكرت الصحف ..
فقاطعته بقولها :
ـ انى لا اسالك عما ذكرته الصـــحف . لقد كنت وصيفه الخاص . ولا شك انك تعلم اكثر مما روته الصحف
ـ هذا صحيح . ولكن اسمحى لى اولا ان أذكر لك ما يردده الناس .
ـ وما الذى يرددون ؟.
ـ يقولون انه كان للدوق جواد اثير يحبه!.
ـ ثم ماذا ؟.
ـ ثم اصيب هذا الجواد بالجمرة الخبيثة . فجعل الـدوق يلاطفه ويلاعبه فانتقلت اليه العدوى . ومات بنفس الداء الذى مات به الجواد هذا ما ذكرته الصحف .
ـ وهل الحقيقة غير هذا ..؟
ـ نعم
اذن فلم يمت الدوق بالجمرة الخبيثة ؟
بل مات بها . ولكن العدوى لم تنتقل اليه من جواده المصاب
فقالت الفتاة وقد اشتدت دهشتها :
زدنى ايضاحا ..
ـ هناك رجل وخز بطن الجواد بدبوس ملوث بميكروب الداء فأصابه المرض .
ـ هذا فظيع ..!
ـ وقد فعل نفس هذا الرجل ما هو أفظع ..!
ـ وما الذى فعل ..؟
ـ رشق دبوسا ملوثا فى مسند المقعد الذى اعتاد الدوق أن يجلس عليه . فلما استوى فوقه وخزه الدبوس فسرت الجرثومة فى دمه . ومات فى اليوم التالى .

فصاحت دولوريس :
ـ هذا فظيع .! ومن هو هذا المجرم الأثيم ؟
فكان الجواب :
ـ أنا ..!
ـ انت .! انت .! لا شك أنك فعلت هذا خطأ ؟
ـ بل عمدا ..!
ـ يا لك من شقى ..!
ـ أردت أن أقتله لأنى أبغضه .! كنت أعلم أن الآنسة لا تحبه فرأيت أن أقتله حتى لا يتزوجها .
وتراجعت دولوريس فى اشمئزاز .. وقالت :
ـ وهل تظن يا شقى ان ارتكابك هذه الجريمة يجعلنى راضية عليك !
ـ ولكننى نفذت ارادة مولاى الدون جوزيه . قبل أن يموت أوصانى بأن اقتل الدوق
ـ اذن فانت نفسك لم تكن حاقدا على الدوق ؟.
ـ كلا . فهو سيد عظيم نبيل الخلق . وكان يعاملنى برعاية كبيرة .
ـ وهل كان من الضرورى ان تنفذ وصية مولاك ؟.
ـ لم يكن ضروريا
ـ اذن ما الذى دفعك الى ارتكاب هذه الجريمة المنكرة ؟
ـ الخوف
ـ الخوف ؟. ممن كنت تخاف ؟
ـ من رجل كان يعلم أنه حكم على بالاعدام فى اسبانيا فتوعدنى بأن يسلمنى الى القضاء ان لم أقتل الدوق
ـ ومن يكون هذا الرجل ؟
ـ لم أكن أعلم اسمه .. وان كنت الآن أعرفه .
ـ تكلم اذن يا شقى .
ـ اذا كان يهمك يا سيدتى أن تعلمى ما أحاط بموت الدوق دى ميلى من أسرار فارجعى فى هذا الى الكونتس ارتوف
وعند هذه الكلمات انحنى زامبا أمامها فى احترام ثم غادر القاعة .

ـ ٩ ـ

تهالكت دولوريس على احد المقاعد وهى تفكر فيما سمعت .. وتسائل نفسها عن هذه الاسرار العجيبة . وعلاقة الكونتس ارتوف بها . فانها تجدها مندمجة فى جميع الحوادث واسمها على جميع الألسن .

وأنقذها من هذه الخواطر دخول قريبتها المركيزة جوزيف اذ أقبلت عليها تقول :
– اين أنت يا دولوريس .. لقد بحثت عنك فى كل مكان
– وأنا أيضا كنت أبحث عنك .! لقد كنت فى الحديقة .
– الا تعلمين ان الساعة قد أشرفت على الخامسة صباحا ؟. هيا بنا اذن .. ولكن رباه ! ما هذا الشحوب ؟
فابتسمت دولوريس وقالت :
– لقد رأيت بين المدعوين شابا متنكرا فى زى المجرمين فأخافنى منظره .
– آه .. وأنا أيضا رأيته .. لقد كان ثوبه مبتكرا .
ومضت الفتاة الى قصرها وفى رفقتها المركيزة .
وكانت امها الدوقة قد آوت الى مخدعها منذ ساعات فصعدت الفتاة توا الى غرفتها حيث وجدت وصيفتها فى انتظارها .
وقدمت اليها الوصيفة غلافا ضخما مختوما وهى تقول :
– هذا لك يا سيدتى .
– من اتى به ؟
– شخص مجهول أبى ان يذكر اسمه .
– ومتى جاء به ؟.
– فى هذا المساء .. عقب ذهابك الى المرقص
واذ خلت دولوريس بنفسها فضت الغلاف فوجدت ما فيه من اوراق على شكل مذكرات هذا عنوانها :
« تاريخ حياة الكونت ارمان دى كرجاز »
« وأخيه اندريا المعروف باسم سير ويليامز »
« وتلميذ أندريا المعروف باسم روكامبول »
رفعت دولوريس حاجبيها دهشا وقالت فى نفسها :
– ما معنى هذه الألغاز .! انى لم أسمع من قبل باسم أندريا او باسم تلميذه روكامبول ! أما الكونت أرمان دى كرجاز فقد سمعت باسمه وان كنت لا أعرفه .!
وفى الصحيفة الأولى من المذكرات وجدت هذه الكلمات :
« ستصل هذه المذكرات الى يد الآنسة دى سالاندريا عقب عودتها من المرقص حيث ستقف على الكثير من الأسرار . فلتقرأ هذه المذكرات فان لها أهمية خطيرة » .
وشرعت دولوريس تقرأ هذه المذكرات .
كانت عبارة عن قصة الكونت ارمان دى كرجاز منذ قتل أبوه فى ميدان القتال فى روسيا الى اللحظة التى سافرت فيها الباخرة فاولر الى استراليا وعلى ظهرها أندريا مفقوء العين مقطوع اللسان

ولكن لم يرد في المذكرات شيء عن عودة روكامبول من انجلترا بعد ذلك وانتحاله شخصية المركيز دي شامري .

وبعد ساعتين كانت دولوريس قد فرغت من قراءة هذه المذكرات فقالت في نفسها :

ـ هذا عجيب .! ماشأني أنا بهذه الأسرار والجرائم !

وأدهشها أكثر من هذا انها لم تجد في هذه المذكرات اية اشارة الى ذلك السجين الذي التقت به في المرقص

وأخذها النعاس ساعة ثم استيقظت فجلست في شرفة المخدع ترسل البصر الى البحر بمياهه الزرقاء الصافية . وقد نسيت ما كان من أمر هذا السجين والمذكرات التي وصلتها . وانما انتقلت بخواطرها الى خطيبها المركيز دي شامري وجعلت تقول لنفسها :

ـ لا شك ان البرت قد تسلم رسالتي يوم الثلاثاء . واليوم الجمعة . فاذا كان قد كتب الى فورا فلا ريب ان خطابه سيصلني اليوم .

وفجأة انتبهت من خواطرها على صوت مجاذيف ورأت قاربا يتجه الى القصر . وعرفت فيه على الفور قارب قومندان الليمان

* * *

تناولت الفتاة منظارا مكبرا وجعلت ترقب القارب وهو يتقدم الى ناحية القصر

وفجأة خفق قلبها .!

رأت سجينا يتولى ادارة الدفة ويجلس الى جوار القومندان

وما كان هذا السجين الا ذلك الذي التقت به في المرقص في الليلة الماضية .

واقترب القارب من مرسى القوارب بالقصر .. ونحت دولوريس المنظار عن عينيها ..

ورأت السجين يحني رأسه تحية لها ويبتسم ابتسامة حزينة وكذلك حياها القومندان

ورسا القارب ووثب القومندان الى الرصيف فهرعت اليه دولوريس تحييه ..

وقال لها :

ـ لقد رأيتك يا آنستي في الشرفة ، فرأيت ان احضر لاقدم اليك تحياتي ..

ولبث برهة في رفقتها يتحدث اليها ثم ارتد الى قاربه .

وكانت دولوريس طيلة الوقت ترقب السجين بعينين تفيضان رقة وعطفا ..

واذ اخذ القارب فى الابتعاد تناولت منديلها تلوح به للقومندان مودعة .
ولكنها كانت تعلم ان هذه التلويحة انما هى له هو ..! وليست للقومندان ..
واذ رجعت الى مخدعها قالت لنفسها :
ـ ما احمقنى .! ما هذه العاطفة التى أحسها نحو هذا الشاب!
ودخلت عليها خادمتها تحمل اليها خطابا من فرنسا
وأنساها هذا الخطاب ثورة الانفعال التى أخذتها اذ كان واردا اليها من خطيبها المركيز دى شامرى

ـ ١٠ ـ

والآن ندع قادس ومن فيها ونرتد الى باريس
بعد ثمانية أيام من مصرع انطوان العجوز وكيل قصر المركيز دى شامرى رجع المركيز الى باريس واستقر فى داره فى شارع فرنوى .
وجلس فى شرفة الدار يتدبر الحـــوادث التى مرت به فى الاسبوع الاخير وهو يقول فى نفسه :
ـ لقد سرقوا صورتى وأنا طفل . وتركوا لى بطاقة تحمـل اسما من الاسماء المستعارة التى استخدمتها فى جرائمى فالى أية غاية يرمون ..؟ لا ريب عندى ان باكارا هى المرأة التى اقـدمت على هذه الفعلة . فليت شعرى هل عرفت اننى روكامبول ؟. اننا لم نلتق الا مرة واحدة فى الشتاء الماضى . وقد راقبتها جيـــدا فوجدتها تنظر الى بلا اهتمام ولم أقرأ فى ثنايا وجهها أية بادرة من بوادر الشك . فما الذى أهاجها ضدى .؟ أتراها التقت بالمركيز الحقيقى ؟. وهل هو يا ترى على قيد الحياة ؟
وضايقه ان لم يجد لهذا السؤال جوابا
ـ اذا كان المركيز حيا لم يمت فقد هلكت !
وبعد برهة عاد يقول لنفسه :
ـ الرأى عندى أن أغادر باريس على الفـــور وان امضى الى اسبانيا فاحث دولوريس على التعجيل بالزواج .! لقد مات أعدائى جميعا . ولم يبق من يعرف سرى . فلم أعد أخشى أحدا . ولكن اذا كان المركيز حيا واذا كان قد التقى بباكارا . وافضى اليها بقصته فقد هلكت ..!
وقرع الباب ودخل عليه صهره الفيكونت دامول وهو يقول :
ـ هل استيقظت يا عزيزى ؟ . هيا بنا الى السفارة الاسبانية لتوقيع قرارات نقل الجنسية الاسبانية اليك

ـ وهل تمت الاجراءات ..؟
ـ نعم . ولم يبق الا توقيعك فقد سعيت الى التعجيل فى انهائها حتى اراك عاجلا زوجا لابنة الدوق دي سالاندريرا
فقال روكامبول :
ـ انى ماض فى رفقتك فورا على الرغم مما يداخلنى من قلق
ـ وما الذى يقلقك ؟
ـ سرقة صورتى .. انى أعتقد أن تلك المراة المتنكرة فى زى الرجال عشيقة قديمة لى ساءها ان اتخلى عنها واتزوج . وما يدرينى انها سرقت الصورة لتمضى الى خطيبتى بقصة ملفقة رغبة منها فى الافساد بيننا .
فابتسم فابيان وقال :
ـ ان دولوريس هائمة بك ومحال ان تصغى الى مثل هـذه الترهات
ـ أرجو ذلك .
ومضى الرجلان الى دار السفارة
وجلس روكامبول فى قاعة الاستقبال على حين مضى فابيان فى اثر الاوراق يتعقبها من مكتب الى مكتب رغبة منه فى سرعة انجازها .
وفتح باب القاعة ودخل الجنرال « ك » الاسـبانى فحياه روكامبول وقال :
ـ انى مسافر الى اسبانيا ياسيدى الجنرال فهـل تحب أن تعهد الى بأية مهمة ؟
ـ شكرا جزيلا . ومتى ترحل ؟
ـ مساء الغد .
ـ والى أى مدينة تقصد ؟
ـ الى قادس
فضحك الجنرال وقال :
ـ الان أدركت السبب ..! هذا لان خطيبتك هناك ..! واذا أردت خطاب توصية يامركيز قدمته اليك عن طيب خاطر
ـ شكرا جزيلا .
ـ ساوصى بك ابن عمى الكابتن بدرو قومندان السجن
ثم ضحك وقال :
ـ وبهذه المناسبة قد ذكرت حادثا طريفا غاب عنى أن أرويه لك
ـ عن أى شيء ..؟
ـ اسمع .. انك خدمت فى البحرية الانجليزية فى بلاد الهند أليس كذلك ؟..

ـ نعم .
ـ اكان تحت أمرتك يا ترى بحار فرنسى ..؟
ـ هذا جائز ولكنى لا أذكره جيدا . ولكن لم تسأل ؟
فقال الجنرال مسترسلا :
ـ هناك بحار يزعم انه فرنسى خدم فيما يظهر تحت امرتك وعرف الكثير من علاقاتك وطباعك وصداقتك العائلية . وقد اعتقل على ظهر باخرة سويدية يشتغل رجالها بتجارة العبيد فحكم عليه بالسجن خمسة أعوام
ـ وما شأنه ..؟
ـ لقد انتحل شخصيتك فهو يزعم انه يدعى المركيز دى شامرى
وما سمع روكامبول هذه الكلمات حتى امتقع لونه !

اذن فالمركيز الحقيقى لا يزال على قيد الحياة !
لقد صح ما ذهب اليه فى ظنونه .. وما كان اهتمام باكارا بأمره وتعقبه له وسرقتها الصورة الا نتيجة مقابلتها لهذا المركيز ؟

على أن هذه الخواطر ما كادت تنبثق فى رأس روكامبول حتى استعاد رباطة جأشه على الفور فما كان تلميذ اندريا ليضطرب أمام الأهوال والشدائد .
ابتسم وقال فى صوت هادىء .
ـ الحق ان هذا السجين مدع جرىء !

ـ انى أشاطرك هذا الرأى يا مركيز . ولكن الغريب فى الأمر انه استطاع بدهائه ان يقنع ابن عمى قومندان السجن بهذه الرواية الملفقة وكتب الى يسألنى عما اذا كان فى باريس من يدعى المركيز دى شامرى
وضحك الجنرال وقال مسترسلا :
ـ وما دمت ياعزيزى ذاهبا الى قادس ففى وسعك أن تقابل سميك !!
وابتسم روكامبول وقال :
ـ سيدى الجنرال .. لقد طاف بذهنى خاطر عجيب !
ـ اى خاطر يا ترى ؟.

ـ اكتب الى ابن عمك القومندان بدرو خطابا توصيه بى على أن يكون باسم مستعار
ـ ولاى غرض ؟
ـ فى نيتى ان أقضى فى قادس بضعة أيام متنكرا وبذلك أستطيع أن أرى هذا الرجل الذى يزعم انه هو المركيز دى شامرى

دون أن يرانى أو يعرف حقيقـــة شخصيتى !. وسأطلب اليه أن يقص على هذه الحكاية

ـ حسنا .. فى هذا المساء سابعث اليه بخطاب التوصـية ولكن تحت اى أسم تحب أن أقدمك الى ابن عمى .؟

ـ تحت أسم الكونت بولاسكى من بولندا

واذ ذاك انضم اليهما الفيكونت فابيان بعد أن انجز الأوراق المطلوبة . فلم يسمع شيئا من الحديث الذى دار بين روكامبـول والجنرال الاسبانى .

***

بعد دقائق كان روكامبول وصهره قد استقلا مركبهما فانطلق بهما .

وفى الطريق التقيا بمركب آخر استوقفه راكبه وأقبل يحيى فابيان .

وقال فابيان :

ـ طاب يومك يا صديقى سيرفيل ؟. كيف حالك ؟

وكان سيرفيل قاضيا للتحقيق وقد تلقى علومه فى مدرسة واحدة مع فابيان ثم اشتغل بالقضاء .

وقال الفيكونت يسأله :

ـ الى أين أنت ماض يا صديقى ؟

ـ الى دار العدل لاحقق فى قضية هامة

ـ قضية من ..؟

ـ جرائم قتل وقعت فى شارع كلينيان . فمنذ شهرين عثر البوليس على جثتين فى قبو مملوء بالماء . جثة امرأة عجوز ورجل يدعى فانتير .

ـ يا للفظاعة !

وارتعد روكامبول اذ سمع هذين الاسمين . وكان منزويا فى ركن المركب فلم ير أحد ما عراه .

واسترسل القاضى يقول :

ـ وقد وجدنا معهما ثالثا عرفنا أنه يدعى زامبا وكان مطعونا بخنجر بين كتفيه ولكنه كان لا يزال على قيد الحياة

واستولى الرعب على روكامبول . كانت هذه أول مرة عرف فيها أن زامبا لم يمت وقد كان يحسبه جثة هامدة

وقال فابيان :

ـ وهل شفى هذا الخادم من جراحه ؟

ـ نعم .. ولكنه كان مصابا بالجنون

ـ لا شك انه هو القاتل ؟

ـ اننا لم نستجوبه بعد . وقد عهدنا الى الدكتور صامويل بمعالجته وهناك أمل كبير فى شفائه

فالتفت فابيان الى روكامبول وقال :

ـ الدكتور صامويل ؟. انه طبيبك الخاص يا البرت

فقال روكامبول متجلدا :

ـ نعم . وقد أحسنتم الاختيار فهو من أبرع الأطباء

ـ اننا نرجو أن يتم شفاء الخادم على يديه حتى ننال من بين شفتيه مفتاح هذه الالغاز .

وسار القاضى فى سبيله .

وبعد ساعة كان روكامبول منفردا فى غرفته وهو يقول فى نفسه :

ـ زامبا على قيد الحياة . والمركيز الحقيقى على قيد الحياة ! والصورة قد سرقت ..! وباكارا فى أثرى ..! لقد هلكت ...! لقد هلكت !

ولكن تلميذ اندريا ما كان ليدع نفسه فريسة لليأس فى ساعات خطر !. انه من هذا الطراز الذى يستمد من الهزيمة نصرا . ومن ثبات فوزا .!

أنه أمام الخطر يشتد ويقوى . ويصبح أشد تأهبا للنضال وارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة وقال :

ـ سأناضل .! فاما هلكت . واما أهلكت أعدائى .! والويل لمن تدركه الهزيمة .!

ـ ١١ ـ

فى صباح اليوم التالى أمر روكامبول خادمه بأن يعد حقائب السفر .. ثم انطلق من فوره الى منزله السرى الذى اعتاد أن يودعه أدوات التنكر .. فاودع حقيبة صغيرة ما قد يكون فى حاجة اليه من أصباغ وشعور مستعارة وشوارب وادهنة ومواد كيميائية

ثم دعا أحد الحمالين وامره بأن يمضى بهذه الحقيبة الى قصره

ثم انطلق من فوره الى منزل الدكتور صامويل دون ان يعمد الى التنكر اذ لم يخطر له ببال ان هذا الطبيب متواطىء مع باكارا على اماطة اللثام عن سر المركيز المزيف

قرع روكامبول الباب وسأل البواب عن الطبيب فاجابه بأنه غائب عن باريس . فصاح روكامبول فى دهشة :

ـ غائب عن باريس .!
يكون طبيبا ويتخلى عن عيادته ومرضاه .!
هذا محال ؟
ـ تلك هي الحقيقة يا سيدى !.
ـ وكم مضى على سفره ؟.
ـ ثمانية أيام .
ـ وأين ذهب .؟
ـ لا أدرى يا سيدى .. ولكن ربما استطاع خادم الكونتة ارتوف ان ينبئك .!
وسار روكامبول الى منزل باكارا .. أية علاقة بين سفر الطبيب وبين الكونتس ارتوف .!
واستولى عليه القنوط من جديد .. وهو يقول لنفسه :

ـ لقد أصاب اندريا حين قال أن نجمي يأفل بموته .! لقد كان لى بمثابة النور الذى اهتدى على ضوئه ؟ ها قد تضافرت الاقدار على معاكستى ..! ترى هل اكتشف الدكتور صامويل سر جنون الكونت أرتوف .؟ واذا كان فهل فطن الى اننى سرقت هذا السم الهندى من خزائنه . ينبغى ان أقابل باكارا وجها لوجه علنى استطيع ان اهتك الستر عن نواياها ..!
ولما وقفت به المركبة إمام قصر باكارا لم يغب عنه أن النوافذ موصدة فادرك على الفور أن أهل الدار غائبون .
وخف البواب الى استقباله فقال روكامبول :
ـ وهل سادتك غائبون .؟
ـ نعم يا سيدى
ـ من أى يوم ؟
فتردد البواب هنيهة وقال له المركيز :
ـ اننى البارون «ك» الضابط بالحرس الروسى وقد جئتوا من بطرسبرج لاقابل ابن عمى الكونت ارتوف
واثرت هذه الكلمات فى نفس البواب فانحنى أمام البارون المزعوم وقال :
ـ فى هذه الحالة لا ريب ان سيدى البارون يعلم تلك النكبة
ـ اتعنى جنون ابن عمى المسكين !
ـ نعم .. واأسفاه يا سيدى .!
ـ ولكنهم يرجون شفاءه .؟ اليس كذلك ؟ لقد كتبت الى الكونتس بانها عهدت بمعالجته الى طبيب من أشهر الاطباء وهو الدكتور صامويل

ـ تماما يا سيدى البارون
ـ وهل هم مسافرون الآن .؟
فقال البواب مجيبا :
ـ لقد أمرت بأن أكتم الأمر عن الناس جميعا . ولكنى أعتقد أن هذا الامر لا يسرى عليك انت طبعا .. ان سيدى الكونت فى ضيعته فى فونتناى .
ـ مع الدكتور صامويل .؟
ـ كلا .. بل مع مساعده لان الدكتور قد سافر منذ بضعة ايام فى رفقة سيدتى الكونتس .
ـ والى اى بلد سافروا ؟
ـ لا ادرى يا سيدى . لقد كتموا عنى جهتهم
ودس روكامبول فى يده حفنة من النقود . وانطلق من فوره وقد غرق فى خواطره

منذ عشرة أيام سافر الدكتور صامويل . ومنذ تسعة أيام سرقت باكارا الصورة .. وكان فى رفقتها رجل آخر وصفه له جوزيف واوصافه تنطبق على الدكتور صامويل .. وكان معهما خادم هو زامبا بلا ريب لانطباق الاوصاف . ولا شك أنه شفى من جنونه .. ولولا أن ذكر قاضى التحقيق لفابيان ان زامبا على قيد الحياة لما عرفت ذلك

ومضى روكامبول الى داره وجلس الى مكتبه وبعث بالرسالة التالية الى خطيبته دولوريس كونسبسيون :
« حبيبتى دولوريس
لم أحفل بشىء فى خطابك الا بقولك أن ساعة هنائنا قد دنت . فليس يهمنى ان انال لقب الدوقية أو أن أصبح سفيرا لاسبانيا فى بلاد البرازيل .! حسبى نعمة من دنياى أن أضمك الى صدرى وأن القبك بالزوجة العزيزة

اى عزيزتى ..! يمكنك أن تنهالى على باللوم كيف شئت . فقد وصل خطابك الى باريس منذ خمسة أيام ولكنى لم أفضه الا اليوم .
واليك السبب : منذ ثمانية ايام سافرت الى قصرى فى أورانجيرى بمرافقة صهرى فابيان . وقد غاب عنى أن أنبه على خدمى أن يحولوا الى الرسائل التى ترد باسمى

وقد أمضينا ثمانية ايام فى أورانجيرى فريسة للمتاعب والمشقات . وقد وجدت الخدم مدججين بالسلاح . أما وكيلى

فكان قد مضى الى القرية ليقدم شكوى الى مركز البوليس ، اذ وقعت سرقة فى القصر فى الليلة السابقة لوصولنا .

ولكنها سرقة عجيبة أيتها العزيزة .. لم يمد السارق يده الى الاوانى الثمينة أو التحف الفضية ، وإنما اكتفى بأن يسرق صورة لى تمثلنى وأنا فى الثامنة من العمر .

« لقد حضر السارق الى القصر فى مركبة بريد .. واتفق ان انكسرت احدى عجلاتها – ولا شك ان ذلك كان خدعة ذريعة لدخول القصر – فما كان من وكيلى الا ان دعا من فى المركبة الى المبيت فى قصرى ريثما يتم اصلاحها ولا سيما قد سمع صاحبها يزعم انه صديق لى ..

وفى صباح اليوم التالى – وبعد رحيل الضيوف – اكتشف وكيلى ان اللوحة قد انتزعت من اطارها وسرقت

وقد أعيانى التفكير فى الدافع الى هذه السرقة . ولكن فى وسعك أن تدركى هذه الاسباب اذا أنت رجعت قليلا الى الماضى البعيد . اى قبل ان أعرفك .

ففى ذلك العهد كنت غارقا فى الحياة الباريسية الخليعة . ولما كان قلبى خاليا من حبك فقد اتخذت لى بعض الصديقات شأن أبناء النبلاء .

ولكنى حين عرفتك تخليت فورا عن هذه الحياة . ولم أعد افكر الا فيك انت .. ولم يعد يعمر قلبى الا حبك ..

ولكنى تركت جرحا داميا فى قلب فتاة شقراء .

وقد سألتنى هذه الفتاة أن أزودها بتذكار تذكرنى به على مدى الايام فابيت ..

فما كان منها الا ان سرقت هذه الصورة التى وصفتها لك

حبيبتى دولوريس .. اصفحى عنى اذا أنا سقت اليك هذه الاعترافات التى كان ينبغى أن تكتم ..! واعلمى انى ما كاشفتك بهذا الا لخشيتى من ان تتخذ هذه المرأة الفاضبة من تلك الصورة سلاحا تشهره فى وجهى محاولة ان تفسد ما بينى وبينك . فاعلمى اذن انى أحبك .. وانى لا أحب فى هذه الدنيا امرأة سواك ..!

هذا وقد حلت بالقصر نكبة أخرى . وذلك أن وصيفى وجد فى صباح اليوم التالى ميتا فى فراشه بالسكتة القلبية ويظهر انها نجمت عن ابتهاجه بشفائى أو عن حزنه بسرقة الصورة فى أول يوم جئت فيه الى القصر .

ولقد شغلتنى هذه النكبات فلم أكتب الى باريس لتحويل رسائلى ولا بعد انقضاء فترة من الوقت . ولهذا لم أفض خطابك الا بعد خمسة أيام من وصوله الى باريس

وفى خلال أربعة أو خمسة أيام سأتمكن من الحصول على جواز السفر . ثم أرحل فورا الى اسبانيا فالقاك بعد ثمانية أيام لاجثو على ركبتى أمام المرأة التى أهواها » .

((البرت))

وكان روكامبول يرمى بكتابة هذا الخطاب الى غايتين أراد أولا أن يفسد على باكارا ما تسعى اليه من وراء سرقة الصورة . وأراد ثانيا أن يفسح لنفسه بضعة أيام يصل فيها الى قادس متنكرا دون أن تواليه خطيبته برسائلها .

واذ أودع هذا الخطاب صندوق البريد قال فى نفسه :

ـ قتلت الدون جوزيه .. والدوق دى ميلى .. واندريا .. وجميع اولئك الذين اعتقدت أنهم سيكونون عقبة فى طريق زواجى بدولوريس .. والان وقد كتب لى النصر ما كنت لاتردد أمام هذه العقبة الجديدة ..! ينبغى ان أقتل هذا السجين وهو فى سجنه حتى لا يفشى سرى ..!.

وأمضى روكامبول يومه عند اخته بلانش

كانت بلانش ملاكا على صورة انسان .. كانت كالزهرة اليانعة الطاهرة !.. وكانت توالى روكامبول من آيات عطفها وحبها ما هز فؤاده هزات عنيفة .

وكان لا ينفك يقول فى نفسه :

ـ رباه ..! أتراني احببت بلانش كأنها أختى حقا ..! انى أحس نحوها من مشاعر الحب ما يحسه المرء نحو أخته الحقيقية ..! رباه ..! لقد خلقت للحياة العائلية .

* * *

وفى صباح اليوم التالى غادر روكامبول قصره فى مركبة بريد .. ووجهته اسبانيا .

عندما احاطت به الأخطار استرد شجاعته وقدرته على التدبير ونصب المكائد .

وكان طيلة الطريق يقول لنفسه :

ـ الآن بدأ النضال ..! فأما أن أموت .. وأما أن أعيش نبيلا عظيما وعلى رأسى تاج الدوقية .. ! ان الايام بيننا أيها المركيز الحقيقى ..! والويل للمغلوب ..!

القسم الثالث

- ١ -

فى الساعة الثامنة من مساء اليوم التالى لذلك اليوم الذى أقامت فيه بلدية قادس تلك الحفلة الراقصة التنكرية ترحيبا بجلالة الملكة - كانت هناك مركبة تقف بباب فندق « الريشات الثلاث » وهو الفندق الذى يقيم فيه فرناند روشيه وزوجته هرمين .

ومن المركبة هبط رجل تلوح عليه أمارات الثراء ويبدو ان سنه تتراوح بين الخامسة والاربعين والخمسين .. ويسير فى ركابه أربعة من الخدم .

وخف رجال الفندق الى استقباله والترحيب به .

وكان ثلاثة من خدمه يجيدون اللغات الروسية والبولونية والألمانية أما رابعهم فكان يجيد فوق هذه اللغات الفرنسية والانجليزية والاسبانية فتولى ابلاغ صاحب الفندق اسم سيده والقابه .

كان هذا الزائر العظيم يدعى البارون ونسلاس بولاسكى وهو من أعيان بولونيا . وقد ماتت زوجته . منذ عهد قريب فجعل يطوف الارض محاولا أن يسلوها .

وقال الخادم أن مولاه يجهل اللغة الاسبانية ولذلك سيتولى مهمة نقل الاحاديث بينه وبين صاحب الفندق .

ومضى به الرجل الى غرفة تطل على البحر . فاشار الثرى الى أحد خدمه دون أن يتكلم فقدم اليه منظارا مكبرا وضعه عند عينيه وراح يتأمل البحر حتى استقرت عيناه على دار الحكومة ثم على تلك القلعة الحصينة التى اتخذت ليمانا للمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وأرسل عينيه بعد ذلك الى قصر جميل يشرف على البحر . ثم تحدث الى خادمه الذى قال لصاحب الفندق :

- ان مولاى يريد أن يعرف لمن هذا القصر ؟

- أنه لأسقف غرناطة . ولكنه لا يقيم فيه الآن اذ تخلى عنه للدوقة دى سالاندريرا وابنتها وهى من قريباته .

وكان هذا هو كل ما يبغى البارون أن يعرف .

وتناول البارون بطاقة من جيبه خط عليها اسم الفندق الذى ينزل فيه . ثم أخرج من جيبه خطابا عليه عنوان الكابتن بدرو

قومندان السجن والحاكم العسكرى لميناء قادس . ودفعه الى صاحب الفندق فقال خادمه :
ـ ان مولاى يريد منك ان تمضى بهذه الرسالة الى الكابتن بدرو انها من صديق مولاى الجنرال «ك» المقيم فى باريس
وانحنى صاحب الفندق فى احترام وغادر القاعة .
واذ ذاك أشعل البارون سيجارا ضخما وخرج من غرفته ليطوف بالمدينة مدة من الزمن حتى تحين ساعة العشاء .
وفيما هو يجتاز البهو أخذت عينه رجلا فى الثلاثين من العمر يتأبط ذراع امرأة .
واجفل البارون اذ رآهما وأدار رأسه قليلا حتى لا يرياه . فما كان هذان الا فرناند روشيه وزوجته .
وبعد نصف ساعة رجع البارون الى الفندق فتناول الطعام فى غرفته الخاصة ولما فرغ منه دخل عليه صاحب الفندق يحمل السجل الخاص بتسجيل أسماء النازلين فى الفندق ليدون البارون اسمه . وألقى البارون نظرة عجلى على السجل . وقرأ اسم فرناند وزوجته .
ولما خلا الى نفسه جعل يقول :
ـ أى عزيزى روكامبول .! ما الذى أتى بأعدائك القدماء الى هذه المدينة .! فرناند روشيه وزوجته ..! اغلب ظنى أنهما زارا القومندان بدرو فقص عليهما قصة ذلك السجين الذى يزعم أنه هو المركيز دى شامرى . فكتب فرناند الى الكونت دى كرجاز أو الى باكارا ينبئها بالامر .! اذن فهذا هو السر فى ان باكارا قد بدأت تتعقبنى وتطاردنى .! ويغلب على ظنى انها الان موجودة فى قادس تدبر المكائد لكى تفضح أمرى .!
وقرع الباب فى هذه اللحظة فقال بالفرنسية :
ـ ادخل .!
وكان البارون فى هذه اللحظة واقفا فى ركن من الغرفة يكاد يسوده الظلام . اذ كان مصباح المائدة بعيدا عنه .
وقال خادمه الذى كان قد طرق الباب :
ـ خادم القومندان بدرو يطلب مقابلتك
ودخل الخادم يقول ان القومندان تلقى رسالة البارون وانه يكون سعيدا باستقباله فى اليوم التالى .
واذ سمع البارون صوت الخادم اجفل ونظر اليه مستغربا .
لم يكن هذا الخادم الا ذلك الاسبانى زامبا الذى استخدمه روكامبول من قبل آلة طيعة للقضاء على خصومه ومنافسيه فى زواج ابنة الدوق دى سالاندريرا .

عرف البارون زامبا اذ كان الضوء يسقط على وجهه ولكن زامبا لم يعرف ان هذا البارون انما هو روكامبول اذ كان له فى الظلام ستر يحجب وجهه .

وأشار البارون الى خادمه الخاص بالانصراف . ثم دخل الى الغرفة المجاورة من باب داخلى فغاب فيها دقيقتين أو ثلاثا ثم رجع .

اقترب البارون من المصباح وجعل الضوء يسقط على وجهه وقال :

ـ ألم تعرفنى .؟

وارتد زامبا الى الوراء مذعورا .

ولوح روكامبول بمسدس فى يده وهو يقول :

ـ اننا صديقان قديمان !.

ـ هذا صحيح

ـ وأظن ان لدينا حديثا طويلا نتبادله .

وكان زامبا يرتعد وقد أخذه الخوف فقال له روكامبول :

ـ اجلس يا صديقى .. وكفاك ارتعادا . فانى لن اقتلك .!

ـ ٢ ـ

كنا قد تركنا دولوريس كونسبسيون دى سالاندريرا تفض تلك الرسالة التى جاءتها من روكامبول .

ويذكر القراء أنه انبأها فى رسالته بانه سيبقى فى باريس خمسة أيام أو ثمانية على الاكثر ثم يغادرها الى اسبانيا . ولكن الواقع انه غادر باريس فى نفس المساء . فوصل الى مدينة قادس ونزل فى فندق « الريشات الثلاث » فى نفس اليوم الذى وصلت فيه رسالته الى دولوريس .

وهرعت الفتاة الى أمها تطلعها على الرسالة .

وقالت الدوقة :

ـ ما الذى يدعوه الى البقاء فى باريس ثمانية ايام اخرى .؟ الا يعلم ان الملكة فى قادس وانها قد تبرحها من لحظة لأخرى .. وانه ينبغى أن يقدم اليها بصفة رسمية .!

وتنهدت الفتاة وقالت :

ـ ان ثمانية ايام زمن طويل .!

فقالت أمها وهى ترميها ببصرها :

ـ أتحبينه كثيرا ؟

فتضرج وجهها احمرارا . وكان فى ذلك الجواب القاطع .

وأمضت الفتاة سحابة نهـــارها مع أمها تفـكر في خطيبها دوكامبول وقد أسعدها أنه عزم على الحضور .

وفي نحو الساعة الحادية عشرة مساء خرجت دولوريس الى الشرفة وجلست على الدرج المفضي الى البحر

لقد طلبت اليها باكارا أن تنتظر في الشرفة عند منتصف الليل وها قد حان الموعد المضروب .

وعلى الدرج استغرقتها الخواطر . جعلت تفكر في هـــذه القصة العجيبة التي تضمنتها المذكرات التي أرسلتها اليها باكارا

لقد أنبأتها الكونتس ارتوف ان لها صلة وثيقة بهذه الحوادث ومع ذلك فانها لم تعلم بعد كنه هذه الصلة . اذ لا عهد لها من قبل بهذه الأسماء التي تضمنتها المذكرات .

وراحت تفكر في هذا الى أن استفاقت على صوت مجاديف يرتفع تدريجيا . فارسلت بصرها الى البحر فرأت قاربا يدنو من المرسى .

واذ القى القارب مرساه وثبت منه الى الافريز امرأة مقنعة واذ ازاحت قناعها عرفت فيها دولوريس على الفور الكونتس ارتوف

وقالت باكارا :

ـ أأنت وحدك ؟ .

ـ نعم .. فقد آوت أمي الى مخدعها .

ـ وأنا أيضا وحدي

فأومأت دولوريس الى شبح رجل في القـــارب وقالت وهي ترتعد :

ـ وهذا الرجل .؟

ـ اوه .! انه بحار عادي .

وأخذت باكارا بيـــد الفتاة وجلست على مقعد في الشرفـــة وقالت :

ـ لقد كان في نيتي ان استصحب زامبا معي . ولكنه تخلف عن الموعد الذي حددته له فاضطررت أن أحضر وحدي ..

ـ اذن فانت في حاجة الى زامبا .؟

ـ نعم .. فهو عليم باسرار كثيرة وقد وعد بأن يرويهـــا لك بنفسه .

وارتعدت دي سالاندريرا وقالت :

ـ العلك أردت ان يتحـــدث الى مرة أخرى عن الدوق دي شاتوميلي ؟

ـ هـــو ذاك ..

ـ اسمحى لى بكلمة ياسيدتى.. لقد فهمت أن الدوق دى ميلى انما مات مسموما . ولكن لا أحسبك تريدين منى ان أبكى رجلا أراد أن يصل الى الزواج بى بالالتجاء الى وسائل لايمكن أن توصف بما هو أقل من الاحتيال والخداع .

فابتسمت باكارا وقالت :

ـ ومن أجل هذا اردت أن آتى بزامبا معى .. اردت أن اجعله يجلو هـــذا السر وان يبرهن لك على أن الدوق دى ميلى شريف وصادق وانه لم يلفق شيئا .

ـ انى أعلم يا سيدتى انك صديقة حميمة للدوق دى ميــلى فلست استغرب محاولتك تأييده فى أقواله .

ـ انى بذلك انما أؤيد الحقيقة .

ـ الحقيقة .!

ـ بكل تأكيـــد .. ففى عروق دى ميلى تجـــرى دماء دى سالاندريرا وتلك القصة التى ألقاها الى ابيك لم يكن فيهــا حرف واحد من الكذب

ـ اذن لماذا لم يقدم الوثائق المثبتة لهذه الادعاءات .

ـ لأن الرسول الذى ذهب ليأتى بها قتل وسرقت منه .

فقالت الفتاة الاسبانية :

ـ ان ما يخالط صوتك من نبرات الصدق والاخلاص يدلنى يا سيدتى الكونتس على انك خدعت كما خدعت أنا !.

ـ خدعت .! ومن الذى خدعنى .؟

ـ الدوق دى ميلى .

ـ اسمحى لى يا آنستى العزيزة أنك بهذه الكلمات اهنت ميتا ينبغى له الاجلال والاحترام .

ـ اذن فانت تعتقدين انه كان لهذه الوثائق وجود ؟

ـ انى موقنة من هذا .!

ـ اذن ما قولك فى أن الدوق اعترف لى عندما خلا بى أن هذه الوثائق لا وجود لها .! انه لم يعترف فى صراحة . هذا صحيح.. ولكن تلميحاته كانت كافية بحيث أفهم منها ما يريد أن يقول

ـ انى أعرف يا آنستى ما قاله لك الدوق .! عندما سألتــه فى الأمر أجابك بكلمات متلعثمة مضطربة .

ـ وكيف عرفت هذا ؟

ـ ان اباك الدوق هو الذى روى لى ذلك .

ـ وهل سمع ابى حديثنا ؟.

ـ نعم .. فقد كان مختبئا فى الغرفة المجاورة . فكان الموقف حرجا بالنسبة الى الدوق دى ميلى اذ لم يستطع أن يصر على شىء لايملك البرهان عليه . ولاسيما هو يعلم ان اباك يسترق السمع
ـ وهل كان يعلم ان ابى فى الغرفة المجاورة .!

ـ نعم .. وأنت التى أنبأته بذلك فى رسالة بعثت بها اليه فى الصباح
فصاحت الفتاة .
ـ هذا محال !. انى لم اكتب اليه . انها رسالة مزورة .!
ـ انها معى اذا شئت ان تطلعى عليها
ـ ارجوك .
وسارتا الى غرفة الفتاة اذ كانت الشرفة غير مضاءة .
واخرجت باكارا من جيب معطفها رزمة من الرسائل وهى تقول :
ـ خذى رسائلك الى الدوق دى ميلى
فصاحت دولوريس :
ـ رسائلى الى الدوق .! انى لم اكتب الى الدوق الا رسالة واحدة فى حياتى !
ودفعت اليها باكارا حزمة الرسائل . وما القت عليها نظرة حتى هتفت :
ـ رباه .! هذا خطى .! هذه الرسائل مزورة .!

واصابها ما اصاب الكونتس منذ شهور . حين قلد عدوها الرهيب خطها وبعث الى رولان دى كلايه برسائل مزورة مذيلة بتوقيعها .
القت على الرسائل نظرة عجلى وصاحت :
ـ رباه .. انى اكاد أجن . انى اكاد أجن .!

ـ ٣ ـ

فى صوت هادىء قالت باكارا :
ـ انى أعلم يا آنسة انك لم تخطى حرفا من هذه الرسائل ...!
لقد زورت عليك وارسلت الى الدوق دى ميلى فاعتقد انها مكتوبة بخطك .
ـ رباه ..! وقد مات على هذا الاعتقاد ...! هذا فظيع ...!
ـ اقرايها يا آنستى ..! ارجوك ..!
وقرات دولوريس الرسائل . ثم غمغمت :

ــ رباه . الآن فهمت ..! كان الدوق يعتقد انى احبه ..!
ــ نعم .
ــ وان هناك عدوا يحول دون زواجنا ..؟
فقالت باكارا :

ــ وهذا العدو هو امك ..! لقد مات الدوق دى ميلى وهو يعتقد أن أمك الدوقة هى التى كانت تحول دون هذا الزواج ..!
ــ ولكن من الذى كان يمضى اليه بهذه الرسائل ..؟
ــ زامبا
ــ يا للشقى ..!
ــ انه لم يكن سوى آلة فى يد ذلك الذى كتب هذه الرسائل
ــ ومن هو الذى كتب هذه الرسائل .؟

ــ الرجل الذى أمر زامبا بأن يخز الدوق بالدبوس الملوث ..
ــ ما اسمه ..؟
ــ سيذكر زامبا اسمه . ولكن حسبك ان تعلمى انه ملتح وانه ذو شعر أحمر ، ويرتدى ثيابا على الطراز البولونى ويعرف من أسرار زامبا ما يكفل ارساله الى المشنقة . ولهذا كان زامبا يطيعه بدافع من الخوف وطمعا فى المكافأة .
ــ ولكن لأى دافع أراد ان يقتل الدوق دى ميلى ؟
ــ لكى يخلو له الجو فلا يجد منافسا يحول دون زواجه بك
فقطبت دولوريس جبينها وقالت :

ــ سيدتى .. كونى على حذر . فانه لم يطمع فى الزواج منى الا رجلان .
ــ اعرف هذا ..
ــ الاول منهما هو الدون جوزيه
ــ لقد مات يا آنستى قبل أن يتقدم الدوق الى خطبتك .
ــ والثانى ..
فقالت باكارا مقاطعة :
ــ انى لا أتهم شخصا معينا يا آنستى ..!
واستطردت دولوريس وقد اتقدت عيناها :

ــ والثانى يا سيدتى الكونتس هو المركيز دى شامرى . ولى أكلماتك تعريض ..
فقالت باكارا مقاطعة :
ــ عفوا يا آنستى ان المركيز لا يزال فى عنفوان الشباب . وهو فيما أعرف غير ملتح وليس بذى شعر أحمر .. فمن المحتمل انه

ليس هو الذى كان يزور رسائلك ويبعث بها الى الدوق دى ميلى مع زامبا .
وخففت هذه الكلمات وقع الصدمة على دولوريس فتنفست الصعداء وقالت :
ـ اذن فهناك شخص ثالث يا سيدتى الكونتس كان يختبئ في زوايا الظلمات ..؟
ـ يجوز .
ـ ومن يكون هذا الشخص ؟
ـ اقرأت المذكرات التى بعثت بها اليك بالأمس ..؟
ـ نعم .. ولم افهم كنه العلاقة التى بينى وبين ابطال هذه القصة .
ـ ان هذه القصة لم تبلغ نهايتها بعد ... اعنى ان بطلها لم يمت .
ـ الا يزال سير ويليامز شقيق الكونت دى كرجاز على قيد الحياة ...
ـ كان على قيد الحياة منذ اربعة شهور .
ـ وهل كان فى أوربا ..!
ـ بل كان فى باريس .. لقد رجع اليها منذ عام وقد مات منذ اربعة شهور .. مات قبل ان يتحقق مشروعه الاخير .
ـ أى مشروع ..؟
ـ مشروع زواجك .
فأجفلت دولوريس وصاحت :
ـ مشروع زواجى .. أكان يريد ان يتزوجنى ..؟
ـ كلا .. وانما كان يريد ان يراك زوجة لتلميذه روكامبول
ـ رباه .! روكامبول . ذلك المجرم الشرير الذى تردد اسمه فى المذكرات التى ارسلتها الى ..؟
ـ هو بعينه .. كان روكامبول يطمع فى الزواج بك .. وقد اعانه استاذه أندريا وراح يدبر من المكائد ما يكفل تحقيق خطته .
ـ يا للجرأة ..!
واستطردت الكونتس قائلة :
ـ ولكن روكامبول كان جحودا ..! حين ظن ان النجاح أصبح محققا قتل استاذه .! وبموت اندريا خانه الحظ ولم يعد يحالفه التوفيق .

* * *

مرت دقائق ودولوريس لائذة بالصمت وقد جرح كبرياءها ان

تعلم ان لصا سفاكا أحبها وتطاول الى التفكير في الاقتران بها .،
وأخيرا رفعت رأسها وقالت :
– سيدتي الكونتس ..! ان ما قصصته على غريب عجيب ..!
ولقد كنت حمقاء مجنونة حين صدقت أقوالك .
– يا آنستي ..!
– ومع ذلك لنفرض جدلا انك صادقة فى كل ما رويت لى ..!
وان ذلك اللص روكامبول تقدم الى يطلب يدى . فهل تحسبين انى
من البلاهة بحيث ارتضيه زوجا لى ..!
فقالت باكارا :
– لقد وعدتنى يا آنسة بأن تنصتى الى حديثى حتى نهايته ؟
– تكلمى فانى مصغية اليك .
– منذ ثلاثين سنة هبط باريس رجل من النبلاء يدعى الكونت
سان هيلين واندمج فى الاوساط الراقية . واستقبله النبلاء ودعى
مرارا الى مآدب أقيمت فى البلاط الامبراطورى . وبعد بضعة
أعوام ظهر ان هذا الكونت مدع افاق وانه انتحل هذا اللقب بعد
أن قتل صاحبه .
فقالت دى سالاندريرا :
– انى اعرف هذه القصة .. ولكن ماشأنى بها ..؟
– أريد ان أقول ان من المحتمل ان تتكرر . وان يتقدم اليك
هذا السفاك روكامبول منتحلا اسم أحد النبلاء . فقد هذبه استاذه
أندريا .. وعلمه كيف يسلك سلوك الاشراف
فقالت دولوريس فى استخفاف :
– لو أن روكامبول تقدم الى وهو يحمل أرفع الألقاب لما غاب
عنى أمره للنظرة الاولى .
– فليكن .. والآن لنتحدث عن شخص آخر .. عن ذلك
السجين الذى قدمته اليك بالامس فى الحفلة الراقصة .،
فارتعدت الفتاة وقالت :
ألعلك تريدين أن تقولى أن له هو أيضا شأنا بى ..!
– هو ذاك ..؟
– وكيف هذا ..؟
– لقد قتل روكامبول ذلك السجين الذى رأيته بالامس ..؟
بعبارة أدق ظن انه قتله .
– ماذا تعنين ..؟
– ألم يرو لك السجين قصته ..؟ عندما غرقت الباخرة صعد
، الجزيرة الصخرية مع زميل له ، وشاءت الاقدار أن يقع فى

حفرة عميقة فاستحال عليه الخروج واستنجد بزميله . فما كان من هذا الزميل الا أن تركه فى الحفرة يموت جوعا
ـ ولماذا ..؟
ـ لانه سرق أوراقه وانتحل لقبه .
فهزت دولوريس رأسها وقالت :
ـ الآن بدأت أفهم .. تحت ستار هذا اللقب اندمج روكامبول وسط نبلاء باريس
ـ تماما ..! وتحت ستار هذا اللقب تقدم ايضا الى خطبتك .
ـ هذا غريب !. انى لا أذكر أن هناك بين أولئك الذين خطبونى من يثير مسلكه الريبة .
ـ اشحذى ذاكرتك .
باليقين ..؟
ـ وما الداعى لذلك وفى وسعك بكلمة واحدة أن تقطعى الشك
وساد الصمت لحظة ثم قالت باكارا :
ـ آنستى .! ان فى عروقك تجرى دماء أنبل أسرة فى اسبانيا ومن أجل هذا جئت اليك .! كان فى وسعى منذ اللحظة الاولى أن أذكر لك اسم هذا الرجل المخادع .. ولكنى أعلم ان لك قلبا رقيقا نبيلا ولهذا تحايلت وسلكت طريقا ملتويا حتى لا تسحق الصدمة قلبك .
فقالت الفتاة وقد امتقع وجهها :
ـ تسحق قلبى !. أنا .؟ أنا .؟ ولكن ما شأنى ..
فقالت باكارا وقد أخذت بيد الفتاة :
ـ لقد أردت يا ابنتى ان انقذك من الاقتران بلص سفاك .
فصاحت دولوريس :
ـ أردت أن تنقذينى .! ماذا تعنين .؟ تكلمى .! انى أكاد أن أجن .! تكلمى .!
وبدأت المسكينة ترتعد وقد أشرق ذهنها . وكادت الظلمات تتبدد من رأسها . ولكنها كانت خائفة من الحقيقة الهائلة
وقالت باكارا وهى تضغط يد الفتاة فى رفق :
ـ ان ذلك الشاب الذى قابلته بالامس فى المرقص يرتدى ثياب المساجين انما هو ذلك الشاب الذى سرقت ثروته وسلب لقبه وجرد من اسمه .! هذا السجين هو المركيز دى شامرى الحقيقى .! اما ذلك الشاب الذى أحببته فلم يكن الا روكامبول !

* * *

لم تطلق الانسة دى سالاندريرا صرخة واحدة .! لا ولم تنطق بكلمة واحدة . !

وانما خذلتها ساقاها وتهاوت على الأرض غائبة عن الصواب
وفي هذه اللحظة.. فتح باب الغرفة وبرزت على عتبته الدوقة دى سالاندريرا وهي تصيح :
ـ لقد سمعت كل شيء .! لقد قتلت ابنتي يا سيدتي الكونتس!

ـ ٤ ـ

تعاونت المرأتان على نقل الفتاة الى الفراش . وبادرتا اليها بالاملاح المنعشة .
وأخيرا فتحت الفتاة عينيها ودارت ببصرها فيما حولها حتى اذا رأت أمها وباكارا هتفت :
ـ كونتس ..! انى أذكر كل شيء ..!
ووثبت من سريرها واقتربت من باكارا وقد اتقدت عيناها :
ـ سيدتي . ان في عروقي تجرى دماء آل دى سالاندريرا . ومن تجرى في عروقها هذه الدماء تعرف كيف تحب وكيف تبغض! والحقد اذا ما دخل قلبي كان جارفا . طاغيا . يكتسح في طريقه كل شيء .!
وأحنت باكارا رأسها وقد أدركت ما ترمى اليه الفتاة .
واستطردت الفتاة قائلة :
ـ قلت لى منذ لحظات ان الرجل الذى أحببته . الرجل الذى أوشك ان اقترن به ليس هو المركيز دى شامرى ؟
ـ نعم
ـ وان المركيز دى شامرى طبقا لكلامك في سجن قادس الان؟
ـ تماما يا آنستي .
ـ وان ذلك الذى يقيم في باريس متخذا هذا الاسم ليس الا ذلك اللص الذى دونت قصته في مذكراتك ؟
ـ انه روكامبول
فقالت الفتاة الاسبانية في صوت صارم النبرات :
ـ سيدتي .! انظرى الى هذا الصليب المعلق عند رأس فراشي!
ـ انى أراه يا آنستي

ـ وهانذا اقسم بهذا الصليب .! قسم فتاة تجرى في عروقها دماء دى سالاندريرا . اقسم بأنى سأعاقب هذا الرجل الذى تجاسر على أن يطلب يدى عقابا رهيبا اذا صح ماذكرته عنه ..! سينقلب حبى له بغضا هائلا . وسيكون لى من مذلتي ومن كبريائي التي جرحت ضراما يزيد حقدى اشتعالا .. سأجعل منه عبرة لمن لا يريد ان يعتبر!

وكانت دى سالاندريرا تنطق بهذه الكلمات فى صوت هادىء ولكنه يفيض رهبة
ثم استرسلت :

ـ أما اذا كنت كاذبة ! .. وقد لفقت هذه الحكايات فأقسم بشرف آل سالاندريرا اننى سأعرف كيف أنتقم !
وانتزعت خنجرا معلقا على الجدار وقالت :
ـ فى صدرك سأغمد هذا الخنجر ..!
ورفعت باكارا رأسها وقالت فى برود :

ـ يا آنسة دى سالاندريرا .. لقد جئت أنقذك من التردى فى الهاوية وبين يدى الدليل القاطع على صحة ما أقول. وما كنت لأسحق قلبك لولا انى موقنة مما أقول . والآن وقد تلقيت هذه الصدمة القاسية فى جلد وشجاعة فقد أصبح فى وسعى أن أتكلم .
وسكتت هنيهة ثم قالت :

ـ منذ عامين . كانت المركيزة دى شامرى طريحة على فراشها وهى تعالج سكرات الموت . وتردد فى احتضارها اسم ولدها المحبوب وعند قائمة السرير كانت هناك فتاة راكعة تبكى الأم العزيزة .

وفى هذه اللحظة دخل رجل لا قلب له وراح ينذر الفتاة الباكية بأنه سيجردها من ثروتها ويقاضيها فى المحاكم اذ لا حق لها فى ان ترث المركيزة .

وفى اليوم التالى جاء الابن الغائب المحبوب . أسرع الى الفتاة فضمها الى صدره وهو يقول :
ـ بلانش ..! اننى أخوك !
وفى نفس اليوم تبارز مع ذلك الرجل المجرد من الاحساس والشعور تبارز معه دفاعا عن أخته .! وانتقاما لأمه .!
وهتفت باريس للبطل . ولم يشك احد فى أنه ليس المركيز دى شامرى
فقالت دولوريس مقاطعة :
ـ انى أريد الدليل يا سيدتى .!

ـ صبرا يا آنستى . فانى لن أفر هاربة .! أوصدى الأبواب اذا شئت .!
وأدركت دولوريس خطأها فى التعجل فقالت :
ـ تكلمى يا سيدتى فانى مصغية اليك .

وتابعت باكارا حديثها بقولها :

ـ وعندما تجلت لى حقيقة هذه الخدعة التى أقدم عليها هذا اللص السفاك كنت بين أحد أمرين .. كانت أمامى امرأتان .. الاولى هى انت .. تلك التى يريد هذا النذل ان يلوث شرفها الذى تتوارثه الاجيال جيلا بعد جيل ! والثانية تلك الأخت التى طالما ضمته الى صدرها وقبلته كما تقبل الفتاة ذلك الذى حملته بطن أمها

كنت بين أحد أمرين : اما أن أمضى اليك فأقول لك لا تتزوجى هذا الرجل فانه أفاق مدع .! واما ان امضى الى بلانش دى شامرى فاقول لها : ان هذا الرجل الذى تحسبينه أخاك أفاق مدع !. وقد قتل أخاك الحقيقى .! وهذه اليد التى طالما ضغطتها فى رفق وقبلتها انما هى يد ملوثة بدماء أخيك .!

فهتفت دولوريس :

ـ هذا فظيع !.

فاسترسلت باكارا .

ـ أرأيت ياسيدتى ..! ان هذا الذى جال بخاطرك الآن قد جال بخاطرى من قبل ..! كنت أعلم ان هذه المكاشفة كفيلة بأن تقتل بلانش دى شامرى على الفور .! ولهذا جئت اليك أنت وكتمت الامر عن الفيكونتس دامول .

فقالت دولوريس دى سالاندريرا :

ـ سأبلغها أنا الحقيقة يا سيدتى الكونتس وسأحاول أن أسرى عنها .

ـ كلا ..! لا ينبغى أن تعلم بلانش شيئا .. والا قتلتها الصدمة .

وكانت باكارا تحمل في يدها طيلة الوقت لفافة مستطيلة الشكل فنشرتها وهى تقول :

ـ ولكن قبل أن أمضى فى حديثى دعينى أزودك بالبرهان المنشود هذه صورة قديمة تمثل المركيز دى شامرى الحقيقى وهو فى الثامنة من العمر ..! لقد زرت قصر اورانجيرى منذ بضع ليال وسرقت هذه الصورة بمساعدة زامبا . انظرى .. ان اسمه مكتوب عليها . وكذلك تاريخ رسمها ..! وانك يا آنستى مصورة بارعة ، وحسبك نظرة الى هذه الصورة لتدركى ان هذه الكتابة قديمة العهد وانه قد مر فعلا على كتابتها عشرون سنة على الاقل ! ثم انظرى الى ملامح هذا الطفل ! أترين ان فيها شيئا من الشبه للمركيز دى شامرى انها شبيهة جدا بهذا السجين الذى قدمته اليك بالامس فى الحفلة الراقصة .

وذكرت الفتاة ما ذكره لها روكامبول عن سرقة صورته من قصر اورانجيرى ..

وأمام هذا الدليل لم يعد لديها شك فى أقوال باكارا ..!ليس بين هذا الطفل وبين المركيز دى شامرى ـ أى روكامبول ـ أى شبه
ومدت يدها تصافح الكونتس وتسألها الصفح .

ثم سترت وجهها بيديها وغمغمت :

ـ رباه .! لشد ما أتمنى ان أموت !.

فقالت باكارا :

ـ بل عيشى لكى تنتقمى وتثأرى ..!

* * *

بعد ساعة من هذا الحديث استقلت باكارا قاربها راجعة الى دارها وما كادت تثب منه الى المرسى حتى رأت فرناند روشيه فى انتظارها .

أقبل عليها يقول :

ـ هل علمت ..؟

ـ كل شىء ..

ـ ألم تقتلها الصدمة ..؟

لقد تلقتها فى شجاعة ! .. انها تحيا الآن بالبغض . وبالحب أيضا .

ـ أى حب تعنين ..؟

فابتسمت وقالت :

ـ لقد دبرت الامور بحيث اجعلها تحب المركيز دى شامرى الحقيقى فى خلال اسبوع على الاكثر .

فارتعد فرناند وقال :

ـ رباه .! وما الصنع اذا حدث هذا .؛

ـ ان لدى خطة معينة ساكتمها دونك فى الوقت الحاضر .. فقد انبعث مكانه حب جديد ولولا ذلك لقضت عليها الصدمة .! ولكننى دبرت الأمر فى دهاء بحيث أحل حبا جديدا مكان حب قديم والآن ارجوك أن تمضى بى الى دارى ثم أذهب بعد ذلك الى مركز البوليس . فقد رابنى غياب زامبا وأخشى أن يكون قد استهدف لخطر ما .

على أنها ما كادت تبلغ الدار التى تسكنها مع الدكتور صامويل حتى رأت رجلا طريحا على عتبة البيت كأنه نائم أو قتيل! وكان هذا الرجل هو زامبا .

كنا قد تركنا البارون ونســلاس بولاسكى « أى صديقنــا روكامبول » شاهرا مسدسه على زامبا حين حضر اليه حـاملا رسالة القومندان بدرو وهو لا يعلم ان هذا البارون البولنــدى انما هو مولاه السابق روكامبول

وكان فى نية زامبا أن يمضى على أثر فراغه من هذه المهمة الى مقابلة باكارا ليصحبها فى ذهابها الى مقابلة دولوريس . ولكنـه اضطر الى التخلف مكرها تحت وطـأة هذا المسدس . فلمـا استبطأته باكارا مضت وحدها كما ذكرنا .

وقال زامبا وهو ينظر الى مسدس روكامبول مذعورا :
ـ اتريد ان تقتلنى مرة أخرى .؟
فضحك روكامبول وقال :

ـ لم يخطر لى على بال ان اقتـلك مرة أخرى يا زامبا اذ لا أكتمك انى سعيد بلقائك .! لقد أنقذك الشيطان من طعنتى لانه يعلم انى ساحتاج الى خدماتك مرة أخرى .. والحق انى لم أكن افكر اذ ذاك فى قتلك .. ولكن الظروف هى التى اكرهتنى على ذلك .. لقد سمعت جلبة فرأيت ان اتخلص منك .

فقال زامبا فى صوت خافت :
ـ بل انك اردت ان تتخلص منى لأنك ادركت انى عرفت اسمك الحقيقى .
ـ وهل عرفته ؟. ومن الذى انبأك به ؟
ـ لقد سمعت مدام فيبار تناديك به ؟. انك تدعى روكامبول كما أنى أعرف اسمك الآخر أى المركيز دى شامرى ..
وامتقع وجه روكامبول اذ سمع هذا .. ولم يخف اضطرابه على زامبا فبث فى نفسه الشجاعة وقال :
ـ الا ترى انه يحسن بك ان تنحى هذا المسدس قليلا فانى اخشى أن ينطلق بلا داع .
أصبت
ـ واذا ما انطلقت الرصاصة جاء رجـال البوليس سراعا ، ونزعوا لحيتك وعرفوا حقيقة شخصيتك .
ـ اصمت .!
وهكذا انقلب الموقف .. وأصبح زامبا هو المسيطر .. وهو المتوعد المهدد .
وضحك زامبا وقال :

ــ وانى أعرف أيضا انك تسعى الى الزواج بابنــة الدوق دى سلاندريرا . لقد قلت لى انك تعمل لحساب شخص آخر . ولكن الواقع أنك انما تعمل لحساب نفسك

ــ قلت لك اصمت والا قتلتك .!

وكان زامبا قد أدرك حقيقة الموقف وانه عاد متسلطــا علــى روكامبول بما عرفه من أسراره فقال :

ــ دع هذا المسدس لنتكلم فى هدوء .. ضعه على الطاولة .!

فقال المركيز الكاذب :

انك ستسدى الى خدمة ولهذا لن أقتلك ! .. لن أقتلك لانى ل حاجة اليك .

ورمى بالمسدس على الطاولة . فقال زامبا :

ــ ولكنى لن اخدمك لابقى على حياتى وانما لانال منك من المال ما اطمع فيه .

ــ سل ما بدالك . سأمنحك ما تريد متى صرت زوجا لابنة الدوق .

فانفجر زامبا يضحك ثم قال :

ــ انك غافل عن الخطر الذى تستهدف له الآن .

ــ أى خطر .؟

ــ غدا ستكون ابنة الدوق على علم بكل شيء . ستعلم انك روكامبول وان المركيز الحقيقى ..

وامسك زامبا عن الكلام فقال روكامبول فى جزع :

ــ أو تعرف هذا كله .! أو تعرف هذا ؟

ــ انى أعرف ان المركيز الحقيقى سجين فى ليمان قادس .

فنمت ملامح روكامبول على الذعر فضحك زامبا وقال :

ــ الآن نستطيع ان نتبادل الحديث على قدم المساواة .

ــ قل .. ما الذى تعرف أيضا ؟..

ــ انى أعرف اننا سنتفاهم وسنصبح صديقين ايها العزيز روكامبول .

فبان الغضب على وجه روكامبول فقال زامبا :

ــ لا تغضب .. اننا الآن على قدم المساواة .. اتريد أن أفضى اليك بما أعلم ؟ اعلم اذن ان هناك امرأة تتعقبــك . وتحاول ان تكشف ما تبطن من امرك . اعنى الكونتس ارتوف

ــ انى أعلم ذلك

ــ وقد عهــدت الى بأن أسرق صورتك من قصر اورانجيرى

ـ لقد عرفت هذا أيضا .. ولكن ما الذى فعلت بالصورة ؟
ـ اعطيتها طبعا للكونتس . فانها تعرف كيف تكافئنى . اما انت فلا تعرف الا أن « تقتلنى » .!
انى آسف .
ـ هل تعلم أيضا ان الكونتس ارتوف فى قادس الآن .؟
ـ يا للشيطان .!
ـ وستقابل الانسة كونسبسيون وتقدم اليها الصورة على انك لست المركيز دى شامرى .
ـ رباه .! لقد هلكت .!
فهز زامبا راسه وقال :
ـ انك لن تهلك اذا انحزت أنا الى صفك ..

فصاح روكامبول وقد انتعش الأمل فى صدره :
ـ كيف ؟
ـ سأجعلك تتزوج ابنة الدوق . وسأضلل باكارا .. وسأغرق المركيز الحقيقى .. واذ ذاك تصبح من عظماء الاسبان !
وكان زامبا يتكلم فى لهجة تدل على اليقين . فما كان من روكامبول الا ان أخذ بيده وشد عليها فى حرارة .

***

بعد صمت قصير قال روكامبول :
ـ اذن فانت تعرض على صفقة .؟ فما هى شروطك ؟
وتناول زامبا المسدس الموضوع على المنضدة فقال روكامبول
ـ ماذا تفعل .؟
ـ لا شىء .. احب ان اعبث به برهة .. والآن اصغ الى شروطى أولا أريد أن اكون وكيلا لك عقب زواجك بابنة الدوق
ـ هذا أمر متفق عليه .
ـ وثانيا أريد من مولاى الدوق دى سالاندريرا أن يوقع اقرارا لا تفزع .. أنه اقرار تافه ولا خطر منه .
ـ افصح .
ـ ان الكونتس ارتوف الآن فى قادس . وستقدم الى الآنسة دى سالاندريرا الصورة والمركيز الحقيقى .. فاذا تقابلت المراتان هلكت انت . ولا سيما انى رويت للكونتس كل ماعرفت من مكائدك ومؤامراتك .
ـ تبا لك أيها الشقى
ـ وهل كنت تريد منى ان افعل غير هذا وقد أغمدت خنجرا بين كتفى .! كما انى زودت الكونتس بتلك الرسائل المزورة التى

كنت تنسب صدورها الى الآنسة دى سالاندريرا .
ـ ويلاه .. ان لديها اذن جميع البراهين !
ـ ولكن بما اننا تفاهمنا اذن ففى وسعى ان افسد هذه التدبيرات . سآتيك بالصورة قبل ان تقدمها الكونتس الى خطيبتك وسأقتل المركيز الحقيقى .. وستظل الآنسة دى كونسبسيون تجهل الحقيقة .. وسيتم الزفاف بعد اسبوعين .

فاشرق وجه روكامبول وقال :
ـ وما هذا الاقرار الذى تريد منى ان اذيله بتوقيعى ..؟
ـ تناول القلم واكتب ما امليه عليك .
وشرع زامبا يملى وروكامبول يكتب :

« فى هذا اليوم كنت موجودا فى قادس فى فندق الريشات الثلاث مع زامبا خادم الدوق دى ميلى سابقا . وخادم القومندان بدرو حالا . وقد اعترفت لزامبا بانني لست المركيز البرت فريدريك اونوريه دى شامرى كما يتوهم الناس .. اننى ادعى روكامبول وقد سرقت أوراق المركيز الشخصية وانتحلت اسمه ولقبه . »

ورفع روكامبول رأسه وقال :
ـ محال ان أوقع هذا الاقرار
ـ هذا شأنك .. ولكن اعلم انك فى هذه الحالة لن تتزوج ابنة الدوق وستزج فى الليمان .؟

- ٦ -

ساد بين الرجلين سكوت قصير قطعه روكامبول بقوله :
ـ اذن فهو رأسى الذى تريد أيها الشقى ..؟
ـ كلا .. ولكنى اريد ضمانا على أنك لن تغدر بى كما غدرت بى مرة سابقة
ـ ولكن اقسم ..
ـ وهل للقتلة السفاكين يمين محترمة ..؟ مادام هذا الاقرار فى حوزتى فلن تجسر على الغدر بى ..؟ سأودع هذا الاقرار لدى أحد المحامين فلا يفتح الا اذا تخلفت عن زيارته مرة كل شهر .. اذا مر شهر لم أزره كان له الحق فى ان يفض الغلاف . وبهذا آمن شرك وغدرك .
ـ أهذه غايتك الحقيقية ..؟
ـ نعم
فجعل المركيز يحدجه بنظرة فاحصة كأنما يريد ان يستشف ما يبطن ثم قال :

ـ انى على استعداد لان أوقع هـــذا الاقرار اذا كتبت أنتَ بدورك اقرارا مماثلا .
انى رهن اشارتك .
وشرع روكامبول يملى وزامبا يكتب :
« ان زامبا ليس هو اسمى الحقيقى .. اننى ادعى جـــوان الكانتا المحكوم عليه بالاعدام لقتله .. الخ »

واذ فرغ روكامبول من املائه الاقرار لم يتردد زامبا لحظـة واحدة فى تذييله بتوقيعه . فما كان من روكامبول الا ان تنـاول القلم بدوره وذيل الاقرار الخاص به بامضائه ..
وتبادل الرجلان الاقرارين .
ونهض زامبا يزمع الانصراف
ـ الى أين ..؟
ـ انى ماض لأعنى بافساد تدبيرات باكارا قبـلَ أن تقـابل خطيبتك .
ـ والسجين ..؟
ـ سأتكفل بأمره .
ـ متى ..؟
ـ مساء الغد . ولكن اسمح لى بأن أوجه اليكَ سؤالا . لماذا جئت الى قادس متنكرا ..؟
ـ لكى أرى المركيز الحقيقى .
ـ اذن فقد كنت على علم بما يجرى وراء الستار ؟
ـ يجوز
فضحك زامبا وقال :
ـ لو لم أقابلك لما أجدى عليك تنكرك شيئا .

ثم دفع اليه الرسالة التى جاء بها اليه من القومندان بدرو فوجده فيها ينبئه بأنه تسلم كتاب التوصية ويعده بأن يلقاه فى اليوم التالى .
وقال زامبا :
ـ ان القومندان بدرو مضياف عظيم وسـيدعوك حتما الى تناول العشاء لديه . وهناك ستجد المركيز الحقيقى قائما بالخدمة فاحذر ان يكشف تنكرك .
ودس زامبا مسدس روكامبول فى جيبه وهو يقول :
ـ انى فى حاجة اليه وساعيده اليك بعد ان أفرغ منه .
ثم انحنى أمام المركيز فى احترام وغادر القاعة . واذ صـار فى الطريق قال فى نفسه :

ـ منذ ساعة والكونتس ارتوف تنتظرني في المرسى ولا شك أنه سيقع في روعها انني خنتها

وإذ طاف خاطر الخيانة بذهنه كف عن السير وراح يقول لنفسه :

ـ ما ألذ الانتقام وما امتعه ..! اني لاكون أسعد الناس حين اضلل هذا الداهية روكامبول الذي أراد ان يفتك بي . ! سأثأر لنفسي وسألقي عليه درسا .! أنا زامبا الذي تجري في عروقه دماء اسبانيا النارية اطعن بخنجر ثم لا انتقم .!

وجلس على مقعد حجري يشرف على البحر واستغرقه التفكير :

ـ اسمع يا صديقي زامبا .. اياك أن تسلم نفسك الى العواطف الهوجاء ..! نعم . لا انكر ان الانتقام لذيذ ..! ولكني في سبيل هذا الانتقام سأخسر الشيء الكثير ان في جيبك اقرارا من روكامبول بأنه ليس المركيز الحقيقي ، وبواسطة هذا الاقرار يمكنك أن تسأله ما شئت دون أن يجسر على أن يرفض لك طلبا .. لقد هزأت به حتى هذه اللحظة .. ولكن ينبغي أن اتدبر الامر جيدا ..! اذا أنا نسيت انتقامي وانقذت روكامبول من الخطر الذي يتهدده فماذا اجني من وراء ذلك .؟ سأصبح وكيلا له فاسرقه كما أشاء ، واذا ما سألته مالا لن يرفض لي سؤالا ! ولكن كيف أخلص الخدمة للرجل الذي أبغض .! ولكن لا مفر من هذا . انني رجل طاعن في السن ولم تعد لي قدرة على العمل . فاذا أنا أصبت منه مالا جسيما أمكنني ان أمضي بقية العمر في راحة وهناء .. ولكن هل أستطيع يا ترى ان انقذ روكامبول .؟ ففي هذه اللحظة لاتزال الآنسة دي سالاندريرا تجهل كل شيء . وأنا الذي سأكاشفها بالحقائق . فينبغي اذن أن ألوذ بالصمت .. وكذلك ينبغي الا تتكلم باكارا .. أما .. لقد طرأت على بالي فكرة رائعة . اذا كانت الكونتس لا تزال في انتظاري في المرسى ركبنا القارب معا . واذ ذاك .. وفي عرض البحر ! يا للشيطان .! يالها من فكرة رائعة .

وأفاق زامبا من استغراقه على صوت مجاذيف تضرب الماء . فقال يخاطب صيادا كان يجلس على كثب منه يصطلي الدفء على نار أوقدها :

ـ خبرني يا صاحبي .! أهذا قارب صيد ذلك الذي أراه على بعد في الظلام ؟

ـ كلا .. انه قارب فيه سيدة شريفة تحب أن تتجول في البحر ليلا فاستأجرت قارب زميلي جوان .

وأدرك زامبا من تكون هذه السيدة فقال في نفسه .

ـ هذا يعكس كل ما دبرت ويهدم كل ما بنيت ! هذه السيدة هي الكونتس .. ولا شك انها استبطأتني فذهبت الى مقابلة الانسة دي سالاندريرا ومعها الصورة والرسائل .! حقا ان روكامبول منكود الحظ .! ولا مفر لي من ان اتخلى عنه !

ومضى الى حانة قريبة فجرع بضع كئوس ثم انطلق الى دار باكارا واستلقى على العتبة ونام .

***

عندما رجعت باكارا من زيارة كونسبسيون وجدت زامبا طريحا على عتبة بابها ففزعت وقالت في نفسها :

ـ ليت شعري أهو نائم ام قتيل .!

واذ سمع زامبا وقع خطواتها استيقظ وهب واقفا فقالت له :

ـ لقد ابطأت فمضيت اليها وحدي

فاشار الى فرناند روشيه وقال :

ـ عندما أخلو بسيدتي الكونتس سأذكر لها السبب

ـ يمكنك ان تتكلم أمام هذا السيد فهو صديقي .

ـ ولكنه سر خطير ذلك الذي سأكشف لك عنه .

وصافح فرناند باكارا وانصرف . فدخلت الى الدار وفي رفقتها زامبا ..

وأقبل عليها يقول .

ـ لقد قابلته هذا المساء !

ـ من ..؟

ـ روكامبول ..

ـ أهو هنا ..؟ ماذا تقول ؟

ـ نعم .. انه هنا في قادس . لقد هبطها متنكرا منذ بضع ساعات منتحلا اسم البارون ونسلاس بولاسكي . وقد نزل في فندق الريشات الثلاث . ولقد ذهبت اليه برسالة من القومندان بدرو فعرفني واستبقاني وهو يتهددني بمسدسه فاضطررت ان اتخلف عن موعدك

وقص عليها كل ما جرى بينه وبين روكامبول . واذ أبرز لها الاقرار الذي كتبه روكامبول استطارها الفرح وقالت :

ـ زامبا .. انك فى الحق رجل عظيم ..
ـ شكرا يا سيدتي الكونتس على هذا الاطراء ..!
ـ بهذا الاقرار نستطيع ان نرسله الى المشنقة او الى الليمان

* * *

أمضى زامبا ساعة يتحدث الى الكونتس ويدبران معا خطة محكمة للايقاع بالمركيز الكاذب ..
وفى الصباح مضى زامبا الى مقابلة المركيز وهو يحمل لفافة تحت ابطه وقال:
ـ لقد بررت بوعدى وجئتك بالصورة الموعودة
ـ حقا ..! انك تستحق مكافأة جزيلة ..!
ودفع اليه كيسا مملوءا بالقطع الذهبية
فابتسم زامبا وقال:
ـ وانت تستحق أن تكون زوجا لابنة الدوق دى سالاندريرا

ـ ٧ ـ

فى مساء اليوم التالى كانت هناك مركبة منطلقة الى قصر اسقف غرناطة الذى تقيم فيه الدوقة دى سالاندريرا وابنتها
وكان فى هذه المركبة فرناند روشيه وباكارا وقد تنكرت فى زى الرجال .
ومال فرناند الى باكارا يقول :
ـ سيدتي الكونتس .. ألا تطلعينني على هـذه الأسرار التى لا تزال خافية على لا أدرى لها كنها .
فضحكت الكونتس وقالت :
ـ سلنى اجبك على ما تشاء . فقد اصبح فى وسعى الآن أن أكشف لك بعض أسرارى .
وسكتت هنيهة ثم استرسلت قائلة :
ـ منذ أيام قلت لك اننى أرجو أن يحل يوم تحب فيه الآنسة دى سالاندريرا المركيز الحقيقى
ـ نعم . وقد قلت لى أيضا انك لا تريدين أن تقدمى روكامبول الى المحاكمة ضنا بتلك الفتاة الطاهرة بلانش أن يسحقها الحزن اذ أحبته حبا صادقا كأنه أخوها .
ـ تماما .
ـ ولكن الشىء الذى لم افهمه بعد يا كونتس هو انه بفرض أن رجاءك قد تحقق وان الآنسة دى سلاندريرا تزوجت المركيز الحقيقى بدلا من روكامبول ـ بفرض ان هذا هو الذى وقع ـ الا تخشين أن تنكشف الحقيقة يوما ما ؟.

ـ كلا .

ـ ألا تخشين ان تعرف الفيكونتس بلانش دى شامرى ان..

ـ كلا .. انها لن تعرف شيئا .. أعرنى سمعك لأفضى اليك بخطتى لقد استطاع المركيز الحقيقى أن يؤثر فى قلب الآنسة دى سالاندريرا تأثيرا عميقا . فظفر بشفقتها .. والشفقة كماتعلم أولى مراتب الحب . وليس بينهما الا خطوة واحدة .! بل انى اعتقد ان هذه الشفقة قد استحالت حبا فعلا ولكنها لم تفهم حقيقة شعورها اذ كان قلبها متعلقا بحب ذلك اللص روكامبول . أما الآن فلا أشك فى أنها قد أدركت انها تحب المركيز السجين .

ـ حسنا .. وبعد ذلك .؟

ـ بعد ذلك لن يكون عسيرا ان نبدل المركيز الحقيقى بالمركيز الكاذب .

ـ وكيف ؟..

ـ انهم هنا يترقبون قدوم المركيز من باريس وستقام حفلة الزفاف فى قصر دى سالاندريرا . وستكون الحفلة بسيطة لن يدعى اليها أحد مراعاة للحداد . فلا أسهل اذ ذاك من أن يحل المركيز الحقيقى محل روكامبول ويتزوجها . وعلى أثر الزفاف سيرحل العروسان الى البرازيل .

ـ البرازيل .؟

ـ نعم .. فقد أمرت جلالة الملكة بتعيين المركيز دى شامرى سفيرا لاسبانيا فى البرازيل بعد ان اكتسب الجنسية الاسبانية طبقا لوثيقة الزواج وسيقيم الزوجان فى البرازيل عشرة أعوام على الأقل واذا ما رجعا استحال على الفيكونتس دأمول ان تكتشف أن هذا المركيز ليس هو الاخ الذى عرفته منذ عشرة أعوام . فان المركيزين من سن واحدة ولهما قامة واحدة .

فقال فرناند :

ـ الآن فهمت .. ولكن هناك عقبات بلا شك ؟

ـ أعرف ذلك وارجو ان اذللها . فالله رحيم لا يرضيه ان تقتل المسكينة بلانش اذا ما عرفت الحقيقة .

ـ ولكن ما الذى تنوين ان تصنعى بهذا السفاك روكامبول ؟

فاتقدت عيناها وقالت :

ـ سانتقم منه .! وسيكون انتقامى هائلا رهيبا .!

ـ ولكن لماذا لم تقبضى على روكامبول ما دمت تعلمين انه فى قادس ؟.

ـ هذا سري الذى سأكتمه عنك ثلاثة أيام أخرى .
واذ ذاك وقفت المركبة بهما أمام قصر اسقف غرناطة وخفت الدوقة دى سالاندريرا الى مقابلة باكارا فقالت لها هذه :
ـ كيف حال ابنتك ؟ .
ـ أحسن حالا .. لقد بكت كثيرا ثم سكن حزنها وهى لا تفتأ منذ هذا الصباح تطلب لقاءك .. انها فى مخدعها الان .
ومضت باكارا الى مقابلة الفتاة وحـــدها على حين جلست الدوقة تتحدث الى فرناند روشيه
واذ دخلت الكونتس على دولوريس الفتها غارقة فىخواطرها فلم تكد تنتبه لدخولها .
واقبلت عليها باكارا تقبلها وتقول :
ـ مسكينة انت يا عزيزتى .. لقد تعذبت كثيرا .
فرفعت دولوريس رأسها وقالت :
ـ انك مخطئة يا سيدتى الكونتس .. اننى لا أفـكر الآن الا فى الانتقام .!
ـ سأنتقم لك يا آنستى .
ـ ولكنى أريد أن أنتقم لنفسى ، وسأجعله انتقاما جديرابامرأة من سلالة دى سالاندريرا .
فقالت الكونتس :
ـ أصبت ، ان لك الحق فى ان تعاقبى .. ولكن ليس لك الحق فى ان تصفحى وتغفرى .! ان هذا الرجل سفاك قاتل ولابد أن ينال جزاءه وهو ملك للعدالة
ـ اذن سلميه اليها يا سيدتى الكونتس
ـ كلا .. لم يحن الوقت بعد .
ـ ماذا تعنين .؟
ـ اعنى أنه قبل ان نفكر فى الانتقام من هذا اللص ينبغى أن نفكر فى رجل آخر .. فى ذلك السجين المظلوم الذى يمضى حياته بين جدران الليمان .!
فارتعدت دولوريس وقالت :
ـ نعم .. يجب أن نفكر فى المركيز دى شامرى الحقيقى ..
يجب أن نخرجه من الليمان !.. وسأكتب الى الملكة فى شأنه .
ـ انك لن تكتبى اليها فى ذلك يا آنستى
ـ ماذا تقولين ؟.
قبل أن تحاولى انقــاذه اسـمحى لهذا المركيز الحقيقى بمقابلتك أولا

وامتقع وجه دولوريس وقالت مغمغمة :
ـ اسمح له بمقابلتي
وقالت باكارا :
ـ انصتي .! الا تسمعين صوت مجاذيف تضرب الماء !؟ انه هو
انه آت اليك الآن .
وارتعدت دولوريس . وقالت باكارا في نفسها :
ـ انها تحبه ..!
وخرجت المرأتان الى الشرفة وهبطتا الدرج المفضى الى البحر
وان هى الا دقائق حتى القى القارب مرساه وهبط منه
المركيز دى شامرى .
لم يكن مرتديا ثياب السجن . وانما كان لابسا بذلة ضابط
بحرى اكسبته فتنة ورشاقة
وانسحبت باكارا في لباقة وتركت الفتاة مع المركيز
وفي ذلك الليل الصامت لبثا معا !
وأخيرا تكلمت دولوريس قائلة :
ـ سيدى .. لقد عرفت اليوم اسمك وتاريخك ..! وعرفت
ان هناك لصا سلبك اسمك ولقبك ..!
ـ سيدتى .. انك انبل النساء واشرفهن
ـ لقد تجاسر لص يا سيدى على ان ينتحل لقبك ثم يتقدم الى
يخطبني ..! يخطبني انا ابنة دى سالاندريرا .. ولقد كانت
الصدمة قاتلة .. جارحة لكبريائى ..! ولكنى احتملتها في جلد
وشجاعة ! ولكن هناك عدانا يا سيدى اختك .. تلك الفتاة النبيلة
التى لا ينبغي ان تتعذب
وان المركيز انين التفجع عند ذكر اخته وقال :
ـ وهناك امك أيضا يا آنستى ..! لو ان هذه الفضيحة اذيعت
وعرفها الناس لقتلها الحزن ..! ومن أجل هذين يجب أن نضحى!
انى لا اطمع يا سيدتى في أسمى أو لقبى او ثروتى .. حسبى ما
أنا فيه .! سنقتل هذا المركيز المدعى وبذلك تندثر اثاره ..
وسأرحل أنا الى بلاد أخرى وانتحل اسما عاديا .. وستبكى
بلانش ذلك الذى حسبته أخاها ثم يسكن حزنها .! وهذا خير من
أن تقتلها صدمة الفضيحة . وبهذه التضحية أكون سعيدا يا آنستى
اذ أقصيت ذلك اللص عن أن يلوث يدك الطاهرة بقبلاته الاثيمة
وكان المركيز يردد هذه الكلمات في صوت باك والدموع تنحدر
من عينيه .
وقالت دولوريس :

ـ سيدى المركيز .. انى امرأة تجرى فى عروقى دماء نبيلة ومحال ان اتخلى عن الرجل الذى يمـد الى يدا فى محنتى ! انى اكون أسعد النساء اذا أمضيت حياتى جاثية على ركبتى امام هذا الرجل .! سيدى أتحب أن تنقذنى من العار والفضيحة ؟. وان تنقذ امى من اليأس القاتل ؟

ـ تكلمى .!

ـ سيدى المركيز . . اترضى بأن تتخذنى زوجة لك .؟

وصرخ المركيز صراخ الفرح وجثا امامها وهو يقول :

ـ تلك سعادة ما كنت لاطمع فيها .! انى أحبك !.

فأخذت بيده وانهضته وهى تقول :

ـ وأنا أيضا أشعر بانى أحبك .!

ـ ٨ ـ

بينما كانت باكارا وفرناند روشيه ذاهبين الى زيارة الدوقة دى سالاندريرا . كان البارون ونسلاس بولاسكى اى روكامبول ذاهبا الى زيارة الكابتن بدرو قومندان الميناء

ورحب القومندان بزائره وجلسا فى قاعة الاستقبال يتبادلان الحديث . ثم دعته بعض الشئون المستعجلة الى الانسحاب فترك زائره وحده بعد أن زوده ببعض الصحف

وما كاد القومندان يغادر القاعة حتى دخل زامبا واقبل على روكامبول وهو يقول فى صوت منخفض :

ـ هل تلقيت رسالتى ؟

ـ نعم .

ـ وهل لزمت فندقك طيلة النهار كما طلبت اليك ؟

ـ طبعا

ـ اذن كل شىء سيسير على ما يرام .. الليلة تنتهى المسألة

ـ أية مسألة ؟.

ـ سأقتل المركيز .! واذ ذاك لن يكون هناك الا مركيز واحـد هو أنت . .!

ـ أتقول حقا ؟.

ـ نعم .. ولكن عليك اذا جاء القومندان أن تبدى رغبتك فى أن تتجول فى البحر قليلا فيضع قاربا تحت تصرفك وسـيتولى ادارته أحد المساجين .. وهذا المسجون سـيكون المركيز ..! وسأدبر الامر اذ ذاك ..

وسمع وقع خطوات فابتعد زامبا مسرعا . وما لبث القومندان ان دخل .
وبعد لحظات جاء زامبا يدعوهما الى مائدة العشاء .
واذ فرغا منه أرسل البارون بصره من النافذة وقال :
ـ الا ما أجمل البحر في الليل .!
وعرض القومندان على زائره ان يقوم بنزهة ليلية فى البحر اذا شاء . وقال :
ـ وسأضع قاربا تحت تصرفك وسيتولى أحد المساجين تسييره .
ـ أحد المساجين .! رباه . اينبغى اذن ان اكتب وصيتى .!
ـ لا تخف .. فهو شاب رضى الخلق .. وسيصحبك خادمى الخاص زامبا
وبعد دقائق كان البارون ونسلاس بولاسكى يهبط الدرج يتقدمه زامبا
وقال زامبا في صوت منخفض:
ـ الآن نستطيع ان نتحادث دون أن يسمعنا أحد .. ان الليلة مظلمة فاذا ما خرجنا الى عرض البحر لم يعد يرانا أحد . ولكننا لن نطلق عليه النار الا اذا صرنا خلف هذه الصخرة .
ـ ولم لا أطعنه بخنجرى ؟
ـ لأن الطعن بالخنجر قد يؤدى الىالاشتباك بينكما ومايدريك أنه قد يتغلب عليك !. هاك مسدسك الذى سبق أن أخذته منك .. أودعه جيبك وتأهب لاطلاق النار حين القى اليك اشارتى .
ـ وما تكون هذه الاشارة .؟
ـ اذا خرجنا الى عرض البحر ساقول مخاطبا السجين : «هيا يا مركيز قص علينا حكاياتك العجيبة » فاذا ما سمعتنى أقول له ذلك فاخرج مسدسك واطلق عليه النار .
فقال روكامبول :
ـ حسنا .. ثق انى سأجزل لك العطاء .
وبعد دقائق كان القارب منطلقا بهم فى البحر وقد استقله روكامبول وزامبا وذلك السجين الملقب بالمركيز .
وما كاد روكامبول يراه حتى عرف فيه للوهلة الاولى ذلك الشاب الذى التقى به على ظهر الباخرة لامويت ثم تركه بعدغرق الباخرة يهلك جوعا فى هذه الجزيرة الصخرية ..
تولى السجين ادارة القارب . وتنفيذا لاوامر زامبا خرج به الى عرض البحر .

واذ ابتعدوا عن الشاطىء وداروا حول الصخرة أشار زامبا الى قصر اسقف غرناطة وقال مخاطبا السجين :

ـ أتعرف أيها المركيز ان فى هذا القصر تقيم خطيبة سميك ؟
فقال السجين فى انفه :
ـ ليس لى سمى .! اننى أنا المركيز دى شامرى .!ولا يوجد سواى من يحق له ان يحمل هذا اللقب
فمال زامبا الى روكامبول يقول فى صوت منخفض :
ـ تأهب .
ثم رفع صوته وقال مخاطبا السجين :
ـ هل لك اذن يا عزيزى المركيز ان تروى لنا قصتك الطريفة ؟
ولكن المركيز السجين لم يبدأ قصته .
فجأة أخرج روكامبول مسدسه وصوبه الى السجين
واتسعت حدقتا المسكين رعبا وصاح :
ـ يا قاتل .! يا قاتل !
وضغط روكامبول الزناد ثلاث مرات
ودوت ثلاث طلقات نارية .
وصرخ السجين صرخة هائلة تجاوبت بها الاصداء . ثم ترنح وسقط فى البحر وابتلعته الامواج .
ومسح روكامبول قطرات العرق التى انعقدت فوق جبينه وقال :
ـ الان لم يعد فى العالم الا مركيز دى شامرى واحد .. وهو أنا ..

ـ ٩ ـ

طغى الفرح على روكامبول حين ايقن انه قضى على غريمه . ومرت لحظات وهو لائذ بالصمت يفكر فى هذا المستقبل السعيد الهانىء الذى يترقبه .
ثم رفع رأسه وقال :
ـ والى اين نمضى الان ؟
فقال زامبا مجيبا :
ـ الى قادس طبعا
ـ وكيف نبرر غيبة هذا السجين ؟
ـ ساقول للقومندان انه مات وانك أنت الذى قتلته .
فصاح روكامبول فى جزع :
ـ ماذا تقول ؟. أجننت ؟

ـ كلا .. وثق أن القومندان سيشكرك لانك قتلته فدع الامر الى حسن تدبيري

وكان زامبا قد استطاع في هـذين اليومين أن يتسلط على روكامبول فلم يسعه الا الامتثال دون ان يسأله ايضاحا

ثم قال زامبا :

ـ ان لدي أشياء كثيرة احب ان اكاشفك بها . وينبغي ان أقول لك أولا انه لا حاجة بك الى ان تخشى شيئا من ناحية الكونتس ارتوف فقد جاءتها برقية بأن زوجها اصيب بنوبة حادة وانه في دور الاحتضار فاضطرت الى الرحيل فجأة

ـ اتقول حقا ؟ ودولوريس ؟

ـ انها لم تر الصورة فقد عهدت الى باكارا بأن احملها اليها، ولكنني بدلا من ذلك حملتها اليك انت .. هذا وقد خشيت باكارا أن يكون لظهور الحقيقة تأثير سيىء على دولوريس . فرأت أن تترفق بها وان تمهد للسر رويدا فبدأت بأن قـدمت اليها المركيز دي شامري .

ـ ماذا تقول ..؟

ـ أقول انها قدمت اليها السجين فروى لها قصته . ولكنه تنفيذا لتعليمات باكارا كتم اسمه عن ابنـة الدوق . اذ كانت الكونتس تعتقد لاسباب خاصة ان وقت المكاشفة لم يحن بعد . فليس لك اذن أن تخشى شيئا ما دامت دولوريس لم تر الصورة ؟ وما دامت باكارا قد سافرت . وما دام المركيز الحقيقي قد أصبح جثة هامدة ..! وبذلك يتم الزفاف في خلال بضعة أيام .

وسكت زامبا هنيهة ثم استتلى قائلا :

ـ وبهذه المناسبة يجب أن اذكر لك ان ابنة الدوق تهـواك هوى شديدا ، فقد ذكرت لي انها تترقب بفارغ الصبر يوم الزفاف

ـ اقالت لك ذلك حقا .؟

ـ نعم وقد عهدت الي برسالة لك أودعها صـندوق البريد لتصلك في باريس ، اذ انها تعتقد انك هناك

فقال روكامبول :

ـ وهل اودعتها الصندوق ؟

ـ وهل تحسبني من البلاهة الى هذه الدرجة .. ها هي ذي

ـ تبا لك .؟ اني أراها مفضوضة الغلاف

ـ وأي عجب في ذلك ؟ السـنا شريكين ، وليس بيننا سر محجوب !

فبان الغضب على وجه روكامبول وقال :

ـ ليت شعرى ما الذى يمنعنى من ان أفرغ فى صدرك الرصاصتين الباقيتين فى مسدسى ..!

ـ يمنعك الاقرار الذى ذيلته بتوقيعك بالامس

ـ وما الذى فعلت به ..؟

ـ أودعته عند احد المحامين فى غلاف مختوم . وخولته الحق فى أن يفضه اذا لم أزره مرة فى كل اسبوع

فقال روكامبول :

ـ الحق انك داهية اريب . ومن الحماقة ان يشجر الخلاف بيننا ، فانى أراك حصيف الرأى ، واسع الحيلة

ونشر روكامبول رسالة ابنة الدوق وراح يتلوها على ضوء المصباح .

« صديقى

غدا سنغادر مدينة قادس تنفيذا لأمر الملكة اذ قالت لى قبيل رحيلها : اننى ارجو ان أراك فى مدريد فى خلال اسبوعين مع زوجك فسافرى يا ابنتى الى دى سالاندريرا اذ ينبغى ان تقام حفلة الزفاف هناك

وقد استطارنى الفرح وانا استمع الى كلمات جلالتها . وعلى أثر رحيلها قررنا ان نسافر غدا الى دى سالاندريرا . وهناك سيتولى عمى اسقف غرناطه عقد زواجنا . فابتهج يا صديقى فقد حانت الساعة المرتقبة .

ولكن يجب أن تعلم أن عمى من أولئك القوم الذين يتشبثون بالتقاليد القديمة . ولهذا طلب الى ألا ألتقى بك حتى يتم الزفاف . فبذلك جرت التقاليد فى أوقات الحداد . يحرم على الخطيبين أن يتلاقيا الا عند اقامة حفلة الزفاف . ولما كان الفضل فى التعجيل بالزواج انما يرجع الى عمى الاسقف لم تكن لى مندوحة عن اطاعته والاذعان لمشيئته .

فتجلد يا صديقى وتذرع بالصبر حتى يجمع الله بيننا .

ويجب أن تغادر باريس بحيث تصل الى سالاندريرا فى صباح يوم ١٤ الجارى على الاكثر . ولكن لا تحضر الى القصر والا غضب عمى . ولكن يمكنك أن تقيم فى بيت الصيد القائم فى أقصى الحديقة وقد أصدرت تعليماتى الى الحارس بذلك .

الى اللقاء أيها الحبيب »

« كونسبسيون »

واذ فرغ روكامبول من تلاوة هذا الخطاب تحول الى زامبا قائلا :

ـ ما هذه التقاليد السخيفة !
ـ تلك تقاليد توارثها أبناء دى سالاندريرا ومحال ان يخرجوا عليها . ومع ذلك فقد دنا اليوم الموعود
ـ وماذا أفعل فى خلال ذلك ؟
ـ البث فى قادس خمسة أيام اخرى متنكرا .. ثم سافر الى دى سالاندريرا . وفى الطريق انزع تنكرك وعد المركيز دى شامرى ثانية .

وكانا فى خلال ذلك قد اقتربا من المرسى فوجدا القومندان جالسا فى انتظارهما
وقال زامبا يخاطب القومندان :
ـ مولاى .! لقد أصيب المركيز بدوار البحر .

ـ أى مركيز ؟
ـ أقصد السجين الذى كان فى رفقتنا
ـ كان فى رفقتكم ؟ واين هو ؟
ـ لقد قتله البارون
وامتقع وجه روكامبول اذ لم يكن يدرى ما يرمى اليه زامبا وقال القومندان .
ـ أتمزح ؟
ـ بل اتكلم جادا .! لقد حاول الفرار ونحن فى البحر ووثب اليه سابحا فما كان من البارون الا ان اطلق عليه النار فقتله ساعته وابتلعه البحر .
وشد القومندان على يد روكامبول شاكرا .
وقال هذا :
ـ لقد اديت واجبى يا سيدى القومندان .! لقد اعتبرت نفسى مسؤولا عنه . فلما رأيته ممعنا فى الهرب أطلقت عليه النار .
وتنفس الصعداء .

ـ ١٠ ـ

ومرت خمسة أيام .
ثم جاء زامبا الى روكامبول يقول :
ـ لقد حان وقت السفر الى دى سالاندريرا .
ـ اعلم ذلك . وقد اشتد تلهفى .! ألا ترافقنى ؟!
ـ طبعا . فما كان لى ان اتخلف عن حضور زفاف سادتى
ـ سادتك ..؟
ـ طبعا .. انسيت انك أقمتنى وكيلا لأملاكك !

ــ لم أنس طبعا .
وفى نفس المساء غادر البارون ونسلاس بولاسكى مدينة قادس فى مركبته الفاخرة . وقد رافقه زامبا .

واذ أشرفت المركبة على برشلونة قال زامبا :
ــ والآن ينبغى ان نصرف خدمك ونبيع مركبتك حتى يمكنك ان ترجع الى شخصيتك . شخصية المركيز دى شامرى .
ــ ولكن كيف امضى الى دى سالاندريرا اذا أنا بعت مركبتى ؟
ــ هذا شأنى . سادبر مركبة اخرى .
وفى صباح اليوم التالى كانت هناك مركبة أخرى متجهة الى أراضى دى سالاندريرا وقد استقلها المركيز دى شامرى وزامبا وأربعة من الخدم الجدد الحقهم المركيز بخدمته بعد أن نزع شخصية البارون ونسلاس .
ولما هبط المساء نزلا باحد الفنادق فأصابا من الطعام الشىء الكثير .
وفجأة قال زامبا :
ــ تلك آخر ليلة نقضيها معا قبل زفافك ، ولهذا عولت على أن وجعل زامبا يحتسى الكئوس تباعا . وروكامبول ينهاه عن ذلك
وجعل زامبا يحتسى الكؤوس تباعا . وروكامبول ينهاه عن ذلك
مخافة أن يزل لسانه بما يكتم من أسرار . ولكن زامبا كان لا ينفك يقول :
ــ فليطمئن بالك يا سيدى المركيز .. فانى ان سكرت أصبحت أحد ذهنا وأكثر دهاء .
فقال روكامبول :
ــ اذن نبئنى كيف تنوى أن تعلل وجودك معى عند وصولنا الى دى سالاندريرا .
ــ هذا شأنى فكن مطمئنا .
وجرع زامبا كأسا أخرى ثم قال :
ــ من عادتى اذا ما جرت الخمر فى عروقى أن أنسى أحقادى وانقلب من أطيب الناس قلبا وأحب حتى أعدائى ..
ثم نظر الى روكامبول وقال :

ــ أتعلم يا مركيز انى أحبك ..! بعد غد .. عندما تقام حفلة الزفاف سأبكى فرحا ..؟ لقد نسيت منذ زمن انك سددت الى صدرى طعنة خنجر ..! انى أحبك كأنك أخى ..! وكم أنا سعيد بأنك أقمتنى وكيلا لك .
فقال روكامبول :

ـ اتحبنى حقا ..؟
ـ كأنك أخى .. بل أكثر من هذا .
ـ اذا كنت مخلصا فى حبك لى كما تقول فما الذى يدعوك اذن الى الاحتفاظ بذلك الاقرار المذيل بامضائى ..؟
ـ أيخيفك هذا الاقرار ..؟

ـ طبعا .. فانه سلاح مخيف ..! ولو انك كنت مخلصا لى كما تقول لأعدمته بلا تردد ..؟ هذا الى انك قد تموت موتا طبيعيا لا يد لي فيه فيفض المحامي الغلاف المختوم ويطلع على الاقرار ويكون فى ذلك القضاء علي وأنا برىء لم أتسبب فى موتك
فضحك زامبا وقال :
ـ وهل صدقت انى أودعت الاقرار عند أحد المحامين ..؟
ـ اذن أين أودعته ..؟
ـ هنا .. انه فى جيبى ..! لقد كان فى حافظتى طيلة الوقت ..! انى أحبك وأثق بك . ولهذا لم أر ما يدعونى الى ايداعه عند أحد المحامين .
ودس زامبا يده فى جيبه وأبرز الاقرار وهو يقول :

ـ هاك الاقرار يا مركيز ..؟ ولكي أبرهن لك على انى أحبك سأحرقه أمامك .. خذه أنت وأحرقه بنفسك ..؟

ودفع الاقرار الى المركيز فألقى عليه نظرة عجلى فوجده صحيحا غير مزور فأدناه من لهيب الشمعة فالتهمته وهو لا يكاد يصدق ما يجرى .
وقال زامبا :
ـ أرأيت اذن انك صديقى وانى أحبك .. انى اذا سكرت أحببت جميع الناس .

وضم روكامبول الخادم زامبا الى صدره وهو يقول :
ـ وأنا أيضا أحبك . وستظل صديقى مدى الحياة .
وبعد ساعة قال زامبا :
لقد حانت ساعة الرحيل فهيا بنا .. وسنمضى الى دى سالاندريرا على صهوات الجياد لا فى المركب .

ـ وما السبب .؟
ـ لاننا سنجتاز ممرا ضيقا جدا لا يتسع للمركبات وهذا الممر قائم على هاوية عميقة وفى بقعة منعزلة يكمن فيهـا قطاع الطرق فينقضون على المسافرين ويقتلونهم . وبعد أن يسلبوهم أموالهم يدفعونهم الى الهوة فلا يشعر بهم أحد .. ولهذا وضعت فى سرج

جوادك مسدسين لتدافع بهما عند الحاجة . فانى وأنا على هذه الحال من السكر لا أملك دفاعا عن نفسى .

وأشرق وجه روكامبول وقال فى نفسه :

ـ لقد أخطأت يا صديقى باحراقك هذا الاقرار .. وستدرك الآن غلطتك .!

وارتسمت على شفتيه ابتسامة شيطانية لو فطن اليها زامبا لأخذته الرعدة .

- ١١ -

امتطى الرجلان جواديهما وانطلقا الى دى سالاندريرا يسيران الهوينا اذ كانت الليلة مظلمة حالكة السواد .

وكان زامبا طيلة الطريق لا ينفك يتكلم وقد اطلقت الخمر لسانه . وكان على رغم سكره يتولى ارشاد روكامبول الى الطريق

وبعد مسير ساعة قال زامبا :

ـ هذا هو الطريق الى دى سالاندريرا .. وهو كما ترى طريق موحش لا تجد به احدا من المارة ويكمن فيه اللصوص

فقال روكامبول :

ـ ألعلك خائف منهم .؟

ـ كلا .. فان الذئاب لا تنهش بعضها

وبعد سكتة قصيرة عاد يقول :

ـ اننا لا نلبث أن نصل الى ذلك المر الضيق الذى حدثتك عنه . واذ ذاك سأتقدمك فى السير لانه لا يتسع لجوادين فى وقت واحد ..

ـ اذن فهو ضيق جدا .

ـ نعم .. وهو مشرف على هاوية عميقة لا قرار لها . وقد رأيت هذه الهوة نهارا فلم يبلغ بصرى قاعها .! ولقد ألقيت فيها حجرا فى يوم من الايام فلم أسمع له صوتا .

ـ هذا غريب .

ـ انها بعيدة القرار . وقد اعتاد قطاع الطرق أن يقذفوا اليها ضحاياهم حتى لا يهتدى اليهم أحد . ولا سيما أن فوهتها تتسع للفارس وجواده معا .

ـ وهل نحن بعيدان عنها ..؟

ـ كلا .. انها على مسافة دقائق قليلة .

وبعد سكتة قصيرة قال زامبا :

ـ ها هو ذا المر .. سأتقدمك لارشدك الى الطريق .. وتناول

مسدسك من السرج وتأهب للطوارىء فقد يباغتنا بعض اللصوص
وسار زامبا بجواده أمام روكامبول .
ثم قال :

ـ هناك قطعة كبيرة من السكر سأرميها فى الهاوية وأؤكد لك انك لن تسمع صوت بلوغها القاع .. حتى لكأنها هاوية بلا قاع ..!
فقال روكامبول :
ـ صدقت .!

وتناول مسدسه من الجراب وصوبه الى زامبا ..
ثم أطلق النار ..
وصرخ زامبا صرخة منكرة وترنح من فوق صهوة الجواد .
وما لبث ان ابتلعته الهاوية ..
وأنصت روكامبول هنيهة فلم يسمع للجثة صوتا وهى ترتطم بالقاع فابتسم وقال :
ـ لقد صدق زامبا .. انها هاوية بلا قرار .!
ولكز جواده فانطلق به الى قصر دى سالاندريرا ..

ـ ١٢ ـ

فى مساء ذلك اليوم وصل روكامبول الى قصر دى سالاندريرا فخف الوكيل الى استقباله والترحيب به ومضى الى دار الصيد الواقعة فى الحديقة وهو يقول :
ـ لقد أخبرتنى سيدتى الآنسة كونسبسيون بأنها كتبت اليك رسالة تنبئك فيها بانك ستقيم فى دار الصيد حتى تحين ساعة الزفاف طبقا للتقاليد الاسبانية ..
ـ اعلم هذا .
وأصاب روكامبول من الطعام والشراب الشىء الكثير ثم آوى الى مضجعه فغرق فى النوم ولم ينتبه الا حين أيقظه الوكيل فى الساعة التاسعة صباحا ..
وقال الوكيل :
ـ ليسمح لى مولاى بان أنبئه ببعض التفصيلات عن حفلة الزفاف .. ستتم الحفلة طبقا للمراسيم التى كانت متبعة فى القرون الوسطى ..

ـ هذا شىء مزعج ..! لعلهم يريدون منى ان أحشر نفسى فى درع وخوذة ..؟
ـ كلا .. ولكن لابد أن ترتدى ثياب العرس وهى عبارة عن

قميص من التيل وقناع سميك يحجب العينين فلا تخلعهما الا فى حضرة الكاهن الاكبر ..
ـ هذا سخف وجنون ..!

ـ ان سيدتى الآنسة كونسبسيون تشاطر سيدى المركيز هذا الرأى . فقد سمعتها تقول بانها ضاقت صدرا بهذه التقاليد التى يصر عليها أسقف غرناطة ..
وبعد ان ارتدى المركيز دى شامرى ثيابه قال له الوكيل :
ـ والآن اسمح لى ياسيدى أن أعصب عينيك ..
ولكن كيف اسير الى الكنيسة ؟
ـ ستسير بمساعدة الرهبان ..
ـ وهل تتم مراسيم الزواج وأنا معصوب العينين ؟
ـ كلا يا سيدى المركيز ، فامام المذبح سترفع العصابة ..

* * *

وقرع الباب فى هذه اللحظة ودخل اربعة من الرهبان ..
وما ملك روكامبول الا ان يرتعد لمرآهم ..
كانوا مرتدين ثيابا سابغة .. وقد اخفوا وجوههم تحت قنعة سوداء سميكة تلتمع عيونهم من ورائها فى فجواتها كأنها جمر من نار ..
وانحنى الرهبان امام روكامبول .. وتناول احدهم عصابة عصب بها عينيه حتى لم يعد يرى شيئا ثم تأبط ذراعه وهو يقول :
ـ هيا بنا ..
وساروا فى دهليز طويل ..
وكان الراهب يقول مخاطبا روكامبول من لحظة لأخرى :
ـ أمامك درج فاهبطه .! أمامك دهليز . أمامك درج ..
وبعد نصف ساعة لم يعد لدى روكامبول شك فى أنه سار مسافة طويلة وانه فى قبو يقع تحت سطح الارض . ويبعد عنها بعشرة أمتار على الأقل ..

وكفوا عن السير أخيرا . وسمع صوتا يقول :
ـ الآن يمكنك أن ترفع العصابة عن عينيك ، فألفى نفسه فى مكان ضيق لا يزيد عرضه على ستة أقدام تعلوه قبة عالية كقباب الكنائس ..
ورأى أمامه صورة للمسيح ، والى يساره لوحة كبيرة تمثل زواج احدى سليلات آل دى سالاندريرا .. أما الى اليمين فرأى

صورة اثارت انتباهه . وكانت تمثل وسائل التعذيب الرهيبة التى كانت متبعة فى القرون الوسطى ..

واشاح روكامبول ببصره عنها ولم يحاول ان يقرأ ما هـو مسطور تحتهـا ..

ثم فطن الى ان ثلاثة من الرهبان قد انسحبوا من المكان فلم يبق فيه الا راهب واحد وقف خلفه صامتا معقود الذراعين على صـدره ..

وفجأة سمع حركة الى جانبه اذ انشق الجدار عن باب سرى فرأى الرهبان الثلاثة قائمين حول موقد تتأجج فيه النيران وفى وسطها حلقة من الحديد ..

وذعر روكامبول لمرأى الاتون المتوهج .. ولكن الباب السرى ما لبث ان انصفق كما كان وغاب المشهد كأنما كان طيفا عارضا.

ثم انشق الجدار المقابل ورأى روكامبول خلفه محرابا يجثو فيه أحد الكهنة وهو مستغرق فى صلاته فسرى عنه وقال فى نفسه :

ـ لاشك ان هذا الكاهن ينتظر قدومى مع خطيبتى ..

ثم فتح باب ثالث ..

وفى نفس هذه اللحظة ازاح الراهب الواقف خلف روكامبول قناعه ..وما تبين روكامبول وجهه حتى اطلق صرخة داوية ..

ورأى روكامبول امرأة ترتدى ثوبا ناصع البياض تتقدم الى ناحيته وهى آخذة بيد فتاة ترتدى ثوبا أسود ..

وفى نفس هذه اللحظة أزاح الراهب الواقف خلف روكامبول قناعه .. وما تبين روكامبول وجهه حتى أطلق صرخة داوية .

لم يكن هذا الراهب الذى أثارت رؤيته رعب روكامبول الا الخادم الاسبانى زامبا ..

ورفع روكامبول يديه الى وجهه كأنما لا يصدق ما ترى عيناه بالأمس اطلق عليه الرصاص . ورآه يسقط فى تلك الهاوية التى لا قرار لها . فكيف يراه الآن منتصبا أمامه ؟!

وخيل اليه انه ازاء شبح من الأشباح ..

وارتد الى الوراء مذعورا ..

وأخذ زامبا يقهقه ضاحكا ثم قال :

ـ وما رأيك فى هذه الخدعة يا مركيز ..! احسبتنى أيها الأبله ثملا ذهبت الخمر بوعيه ..! انى ما قدمت اليك الاقرار لتمزقه الا لكى أعبث بك كيف أشاء .. ولقد وقعت فى الفخ ..!

ولبث روكامبول جامدا كأنما استحال تمثالا من الحجر ..
واسترسل زامبا يقول :

ـ ان المجرمين أوفياء لا يغدر بعضهم ببعض ، ولكنك غدرت بى مرتين .. ولم أنل منك سوى الطعنات والطلقات النارية جزاء اخلاصى لك ..! ولكنى سأثأر لنفسى ..! وسأريك كيف يكون الانتقام ..

وضحك مرة أخرى ثم عاد الى الحديث قائلا

ـ عندما كنت فى قبضة يدى جعلت تبذل لى من المال ما أشاء ، ولكن حين اطمأننت الى الفوز انقلبت على ، واطلقت على النار ..! ولكن زامبا ياصديقى رجل متوحش تجرى فى عروقه دماء الفطرة ..! وسترى كيف يكون انتقامى هائلا . فمن كان من طرازك لا يستحق ذرة من الرحمة ..

وكان روكامبول لا يزال يرتعد . وقد اخذه الخوف ..
وقال زامبا مسترسلا :

ـ لقد كان حديث الهاوية خدعة محبوكة . انك لم تسمع صوت قطعة السكر وان القيها فى الهاوية فظننت انها هاوية لا قرار لها . وما طاف بخاطرك انها حفرة قريبة القاع .. ولكن قاعها مغطى بالاخشاب الطويلة النامية . فلا يسمع صوت لمن يقع فيها . اذ تتلقفه الاعشاب فتميت صوت الصدمة ..! واخذ زامبا يضحك من جديد ثم قال :

ـ اما الرصاص الذى أصابنى فكان خدعة أخرى . أنا الذى حشوت مسدسك ووضعته وجرابه فى السرج ، وقد حشوته بخرطوش فارغ يخرج نارا ودخانا ودويا ولكنه لا يصيب باذى

وكان روكامبول قد تمالك روعه فرفع أصبعه الى فمه مشيرا الى زامبا بالسكوت وهو يقول :

ـ صه ..! والا سمعتك خطيبتى كونسبسيون .. أصمت وخذ من المال ما شئت .. ان خطيبتى وراء هذا الباب تنتظر قدومى ..!

فأغرق زامبا فى الضحك وقال :

ـ اتظن ذلك ..؟ صدقت ..! لقد نسيت والله انك الآن ترتدى ثياب العرس !.. الا اكشف عن قميصك وتأمله ..

وفك روكامبول ازرار معطفه ونظر الى القميص الذى يلبسه وهو معصوب العينين ..

ما كاد يرى القميص حتى أطلق صرخة أخرى .! كان قميصا من التيل مخططا باللون الاحمر ..

انه القميص الذى يرتديه المجرمون المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة .

وضغط زامبا زرا فى الجدار وهو يقول : والآن تأمل هذا المشهد ..

وانشق الجدار .. وخلفه رأى روكامبول كنيسه القصر ..
وأمام المذبح رأى عروسين والأسقف يتولى عقد الزواج ..
كانت الفتاة هى دولوريس كونسبسيون دى سالاندريرا ..
أما الرجل فكان المركيز دى شامرى الحقيقى ..
واتسعت حدقتا روكامبول دهشه ..
وابتسم زامبا وقال وهو يرد الباب السرى مكانه :

ـ لقدظننت أيها الأبله انكقتلت المركيز دىشامري الحقيقى ونحن فى القارب وان البحر قد ابتلعه .. وما علمت اننى نزعت الرصاص من مسدسك وحشوته بارودا فارغا لا يؤذى وقد هوى المركيز الحقيقى الى البحر ثم سبح تحت الماء صوب الشاطىء فلم تره لشدة الظلام ..

والآن اعلمانك أهنت كرامة فتاةآل دى سالاندريرافتجاسرت على ان تتقدم لخطبتها وأنت لص سفاك .. واذا ما أهينتسليلة دى سالاندريرا عرفت كيف تنتقم .. ولقد كان خطابها الأخير اليك فخا لاصطيادك ..

وأفاق روكامبول على هذه الكلمات ..
ادرك انه لم يخسر لقب الدوقية فحسب . لا ولا ثروة ابنة الدوق .وانما خسر حياته أيضـــا .!

انه الآن محاط باعدائه ولن يلقى منأحد منهم ذرة منالرحمة واستولى عليه خوف شديد .. خوف لم يشعر من قبل بنظيره وضغط زامبا زرا فى الجدار فانشق عن ذلك الاتون المتأجج وقد وقف الرهبان حوله يصهرون الحلقة الحديدية ..

وارتعد روكامبول وقد ادرك الفرض من صهر هذه الحلقة

والى جانب الرهبان الثلاثة رأى امرأة مرتدية ثياب القضاة وما كانت هذه المرأة الا باكارا ..

***

يتفق أحيانا أن يغمى على المجرم أو تخذله قواه حين سمع قاضيه يصدر حكما باعدامه .. ولكن روكامبول لم يكن من هذا الطراز ..

عندما أيقن من الهلاك استمد من الخطر شجاعة جديدة ..

واستعاد رباطة جاشه وارتسمت على شفتيه ابتسامته المتهكمة وقال فيازدراء يخاطب باكارا : كنت أعلم أنك وراء هذا الرجل .. فهو من البلاهة بحيث يعجز عن هذا التدبير ..!

فقالت باكارا : دعك من هذا الصلف الكاذب ياروكامبول فقد حلت ساعة القصاص ..

فهز كتفيه في غير اكتراث وقال :

ـ وهل تحسبينني أخاف الموت ..! اقتليني فما كنتلأبالى بعد أن أصبحت مركيزا عظيما .. وبعد ان هامت بى فتاة من اعرق اسرات اسبانيا .! وبعد ان دعتنى الكونتس داموول إخا لها لقد لوثت سمعتك ومرغت اسمك فى الاوحال انت يامن كان الناس ينظرون اليك نظرتهم الى الملائكة !.! اقتليني فقد انتقمت لنفسي قبل أن أموت .!

وفي صوت هادىء أجابته الكونتس :

ـ انت مخطىء يا روكامبول .! اننى لن اقتلك .!

ـ اذن ما الذى تنوين ان تصنعى بى .؟

ـ تأمل ثوبك .! انه ثوب المجرمين المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة فى الليمان .. وانظر الى هذه الحلقة الحديدية الملتهبة انها ما جعلت الا لتطوق ساقك .! ان الموت بالنسبة اليك لا يعد قصاصا ..

أى روكامبول .! ان قصاصك الوحيد هو ان تقضى حياتك فى الليمان .. حبيسا بين الجدران السوداء .. تثقل كاهلك السلاسل والأغلال .. ذلكم هوالقصاص الوحيد الذى يصلح لك ستزج فى الليمان وتحرم من ملذات الحياة .. ويصبح المركيز المتأنق سجينا مجزوز الشعر لا يرتدى الا قميصا خشنا من التيل

واذ نطقت باكارا بهذه الكلمات أشارت الى الرهبان الثلاثة فاحاطوا بروكامبول وهو يناضلهم عن نفسه مطلقا صرخاتداوية

ولكن الايدى الفولاذية أطبقت على عنقه فكتمت صرخاته .. وطرحه الرهبان على الارض وشدوا ساعديه وساقيه الى سيور من الجلد مثبته فى الجدران ..

ثم غمست الحلقة الملتهبة في الماء البارد ووضعت حول ساقه وطرقت فانطبقت عليه وهو يصرخ متوجعا ..
وتكلمت باكارا في صوت هادىء وقالت :
ـ روكامبول .! انك ستزج في الليمان .! وستحل فيه مكان المركيز دي شامري الحقيقي. فمن الانصاف ان تنال مكان الرجل الذي سرقت اسمه ولقبه .!

وصاح السجين الجديد : سألجأ الى القضاء .! ان هذه المحكمة غير قانونية .! سأنادي بملء صوتي بانني برىء . زججت في السجن غدرا .! سأطالب بأن أحاكم أمام القضاء .!
فقالت الكونتس :

ـ وللمرة الثانية أقول لك ياروكامبول انك مخطىء .! لقد جرت المحاكمة طبقا للاوضاع القانونية . وقد ذيل الحكم عليك كبير القضـاه . واذا كانت محاكمتك قد جرت بصفة سرية فما ذلك الا مراعاة لاعتبارات خاصة انت ادرى بها .! اذ ما كان القاضي ليدعوك علنا الى المحاكمة ليلوث شرف أسرة من أعرق أسرات أسبانيا .! سيخرج المركيز الحقيقي من الليمان وتحل مكانه دون أن يفطن أحد الى حقيقة هذا التبديل الذي حدث ..
فصاح روكامبول :

ـ انك مخطئة في هذا .! قد يكون لي قوام المركيز الحقيقي ولكني لا أشبهه في شيء آخر .! وسيعلم زملاؤه وسـيعلم السجانون جميعا بما حدث من ابدال .!
ـ ها انت ذا قد أخطأت مرة أخرى .!
ـ بل انت المخطئة .!
ـ اصغ الي يا روكامبول .. في بعض الأحيان يفر المجرمون من السجون . ولكيلا يهتدي اليهم رجال البوليس يلجأون الى تشويه وجوههم حتى لا يتبين مطاردوهم ملامحهم الاصلية .
واذ ذاك فهم روكامبول سر الانتقام الهائل الذي أعدته له باكارا ...
صرخ صرخة مفجعة حافلة باليأس

ولكن الصرخة ماتت على شفتيه كما ماتت من قبل صرخات أخرى ...
من جديد أطبقت الايدي على عنقه ... وجثم الرهبان على صدره ...

وتناول احد الرهبان زجاجة مختومة أفرغ فى اناء كمية من السائل الذى فيها . ثم تناول خرقة مسها فى السائل واجراها على وجه روكامبول
وجعل المجرم السفاك يتلوى لفرط الألم
ثم تنحى عنه الرهبان وتركوه طليقا .
واقترب منه زامبا وفى يده مرآة صغيرة بسطها أمام وجه روكامبول وهو يقول : والآن تأمل وجهك أيها المركيز الجميل الفتان !..
وتطلع روكامبول الى وجهه فى المرآة .
ثم اطلق صرخة ياس داوية ..!
لقد شوه ماء النار وجهه فاصبحت العين تقذى برؤيته .!

* * *

وفى هذه اللحظة دقت نواقيس كنيسة دى سالاندريرا ابتهاجا بزفاف المركيز دى شامرى الحقيقى الى الآنسة دولوريس كونسبسيون دى سالاندريرا .

— ١٤ —

بعد هذه الحوادث بخمسة ايام حمل البريد الى الفيكونتس بلانش دامول رسالة عليها الطوابع الاسبانية . ففضتها فى لهفة وقد ظنت انها من أخيها المركيز دى شامرى ولكنها ألفت فى ذيلها توقيع دولوريس .
وفى هذه الرسالة قالت دولوريس ان حفلة الزفاف قد اقيمت فى كنيسة دى سالاندريرا .. وان الملكة أصدرت أمرا بتعيين زوجها الدوق دى سالاندريرا (أى المركيز شامرى سابقا) سفيرا لاسبانيا فى البرازيل . وانهما اعتزما الرحيل فورا .
واختتمت دولوريس خطابها بقولها :
« ولقد تمنى البرت أن يكتب اليك هذه الرسالة بنفسه .. ولكنه أصيب بالأمس بجرح خفيف فى يده بينما كان منهمكا فى فتح احدى زجاجات الشمبانيا . فعهد الى بأن أكتب اليك نيابة عنه ..
فوداعا يا صديقى وارجو أن نلتقى فى باريس عاجلا وان كنت أعتقد ان هذا اللقاء لن يكون الا بعد بضعة أعوام اذ يستحيل على زوجى أن يغادر مقر منصبه فى وقت قريب »

وما كان العذر الذى ساقته دولوريس عن اصابة يد زوجها بجرح الا حجة مختلقة تبرر بها عدم كتابته رسالة الى أخته . فلو انه كتب لفضحه خطه ولأدركت بلانش ان ليس هذا هو خط أخيها ..

وفى مساء ذلك اليوم بينما كان الكونت ارمان دى كرجاز جالسا فى داره اذ دخل عليه فرناند روشيه .

وتلقاه الكونت فى لهفة وراح يستفسره عن أنباء باكارا وما فعلت فى حادث المركيز دى شامرى .

وقص عليه فرناند جميع الحوادث الآنفة . وكيف انتهى بها تدبيرها الرائع الى اخراج المركيز الحقيقى من سجنه واحلال المركيز الكاذب مكانه دون أن تثار أية فضيحة . ودون أن يدرى بالأمر الا أفراد قلائل

واختتم فرناند حديثه بقوله :

ـ وقد شوه وجه روكامبول بماء النار حتى لا يتبين احد ملامحه فلا يفطن القوم الى ما حدث من ابدال .

وقال الكونت دى كرجاز :

ـ الحق ان باكارا امرأة ذات دهاء عجيب . ولولا أن تدخلت بحكمتها وحسن تدبيرها لكانت فضيحة شاملة قضت على شرف وقلوب أسرات من أعرق العائلات وأنبلها .

* * *

فى صباح اليوم التالى حضرت باكارا الى زيارة الكونت أرمان دى كرجاز وفى رفقتها الفيكونت فابيان دامول والشيفالييه رولان دى كلاييه . وامرأة مقنعة جلست فى ركن القاعة دون أن تزيح نقابها

وتكلم رولان قائلا

ـ سيدى الفيكونت دامول ..؟ انك تعتقد بلا ريب أن الكونتس ارتوف عشيقة لى ..؟

فقطب فابيان جبينه وقال :

ـ طبعا .. فلقد رأيتها بعينى بين ذراعيك .

ـ واذا أثبت لك أنك مخطىء فى اعتقادك ..؟

فبانت أمارات الدهشة على وجه فابيان وقال :

ـ وهل أكذب عينى ..؟

ـ واذا كانت عيناك قد خدعتاك ..؟

ـ فى هذه الحالة أرى واجبا على أن انادى فى الناس جميعا بأن الكونتس ارتوف اشرف النساء .
ـ اذن يمكنك أن تفعل هذا وأنت مطمئن الخاطر .
ـ ولكن أين الدليل .؟
ـ سأقدمه لك فورا .. انظر .!
وأشار الى المراة المقنعة فأزاحت نقابها .
وارتاع فابيان والكونت دى كرجاز وهتفا دهشين .
وجعل فابيان يقول :
ـ رباه ..! ما هذا الذى أرى .. ان امامى امرأتين . كلا منهما على صورة الكونتس ارتوف .!
وتكلمت باكارا قائلة :
ـ اننى أنا الكونتس ارتوف .
ـ وهذه السيدة ؟
ـ انها أخت غير شرعية لى وتدعى ريبيكا .
فقال فابيان
ـ وهل هى التى ...؟
ـ تماما .. هى التى رأيتها من ثقب الباب بين ذراعى رولان
ـ ولكن كيف ...
فقاطعته باكارا بقولها :
ـ دعنى اقص عليك ما حدث .

وقصت عليه تفاصيل تلك المكائد الرهيبة التى حاكها روكامبول وكيف زور خطها وأساء الى سمعتها . وسقى زوجها سما هنديا يؤدى الى الجنون .
ذكرت كل هذه التفاصيل باسهاب ولكنها كتمت أسم روكامبول
وقال فابيان :
ـ ومن الذى حاك هذه المؤامرات .؟
ـ عدو هائل لى .
ـ ما اسمه ..؟
ـ هذا سرى الذى سأكتمه دونك . وحسبك أن تعلم انه زج فى الليمان .
وبعد سكتة قصيرة انبعث فابيان واقفا واقترب من باكارا واخذ بيدها ومال فوقها يقبلها .
ثم قال :

ـ سيدتى .. انك أشرف النساء .

ـ وعلام عولت يا سيدى الفيكونت ..؟

ـ عولت على أن ابرهن للدنيا بأسرها انك لست المرأة التى يظنون ...

بعد ساعتين من هذا الحديث دخل الفيكونت فابيان دامول والشيفالييه رولان دى كلاييه النادى الذى كان الكونت ارتوف معتادا أن يتردد عليه قبل أن يصاب بالجنون .

كان الأعضاء منهمكين فى الحديث أو لعب الورق ولكن فابيان صاح بهم :

ـ أيها الأصدقاء .. أعيرونى سمعكم لحظة قصيرة فانى محدثكم بأمر خطير .

ورفعوا اليه رءوسهم متسائلين :

ـ انى ادعوكم أيها الأصدقاء الى الحضور الى دار الأوبرا مساء يوم الجمعة القادم

ـ ولماذا ..؟

ـ لكى أريكم فى مقصورتى الكونتس ارتوف .. والى جانبها سترون امرأة أخرى تشبهها شبها عجيبا حتى لكأنهما توأمتان . وانى أراهنكم على انكم لن تجدوا أى فرق بين المرأتين .! ولقد كان هذا هو السر فى تلك الخديعة التى تورط فيها صديقنا رولان . فقد عشق المرأة الشبيهة وهو يظن انها هى الكونتس . واذ ذاك ستوقنون كما أيقنت أنا أن الكونتس أرتوف من أشرف النساء وأطهرهن .

وتبادل الحاضرون نظرات الدهش والاستغراب .

وفى اليوم الموعود ذهبوا جميعا الى دار الأوبرا ورأوا الشبيهتين وزالت عن باكارا وصمة العار .

ـ ١٥ ـ

بعد ثلاثة أيام من هذه الحوادث جاء الدكتور صامويل يزور الكونتس ارتوف .

كان يبدو مشرق الوجه فرحا . وقد ابتدرها بقوله :

ـ سيدتى . دعينى أهنئك ..!

ـ هل ...

ـ نعم .. شفى زوجك ..!

ـ الا شكرا لله ..! ومتى القاه ..؟

ـ غـــدا ...

- ولم هذا الارجاء ..؟
- حتى لا يصاب بنكسه اخرى تكون عاقبتها اشد وأوخم
ثم قال بعد لحظة :
- ولكنى أريد أن أمهد الأمر قبل لقائك .
- مرنى بما تبغى .
- أوفدى خادما الى الفيكونت فابيان واسأليه أن يقابلنى فى المستشفى بعد ساعتين .
- وما غايتك من ذلك ..؟
- ان للفيكونت فابيان منزلة خاصة عند زوجك الكونت ارتوف . وهو يؤمن بأقواله ايمانا أعمى لثقته فى نبله وشرفه . فاذا تحدث اليه فابيان فى أمرك آمن بأنك طاهرة شريفة ، وانتفت الشكوك التى ثارت فى قلبه .
- ولكنها قد تثور مرة أخرى ..؟
- محال . لأنى سأقدم اليه على اثر حديثه مع فابيان تلك المرأة التى تشبهك فيكون فى رؤيته لها الدليل القاطع الذى لا ينقض ..

* * *

وبعد يومين دخلت باكارا على زوجها .
هب الكونت ارتوف واقفا وبسط اليها يديه وهو يقول :
- زوجتى الطاهرة الشريفة ..!
ثم اغرورقت عيناه بالعبرات وتهاوى على المقعد خائر القوى وهو يبكى بكاء الأطفال .

ودنت منه باكارا وطوقت عنقه بذراعيها وجعلت تحاول أن تسرى عنه بقبلاتها وكلماتها العذبة .
وتناول أرتوف يد زوجته وراح يلثمها وهو يقول :
- لقد كنت مجنونا حين ارتبت فيك . انك ملاك طاهر .! ولو انى أمضيت حياتى جاثيا عند قدميك لما كفرت عن اساءتى اليك .
فقبلته وقالت :
- لننس الماضى بشقائه .. ولنعش للمستقبل .. لقد مات أندريا فلا رجعة له من قبره ، وزج روكامبول فى الليمان فلا مهرب له من سجنه .! لقد اندثر عهد الشقاء .
فهتف الكونت من أعماق قلبه :
- وسأجعلك أسعد النساء لأكفر عن خطيئتى .!

خاتمـــــة

بعد خمسةأعوام من هذه الحوادث تلقت الـكونتس ارتوف وهى مقيمة فى مدينة أودسا فى بلاد الروسيا الرسالة التاليـة التى تحمل الطوابع الصينية :

« عزيزتى الكونتس

سيصلك هذا الخطاب قبل وصـــولى أنا والبرت الى أوربا ببضعة أيام اذ عولنا على العودة بعد ان أمضينا خمسة أعـوام بعيدين عن أرض الوطن قضينا عاما منها فى البرازيل وأربعة فى بلاد الصين .

هل تعرفين لماذا فكرنا فى العودة ..؟

لو انك رأيت زوجى الآن لما عرفته .!

لقد تغيرت ملامحه تغييرا كثيرا اذ أثرت شمس الشرق على بشرته ولوحتها الى الاسمرار . هذا الى أن نمرا ضربه أثنـــاء الصيد بمخلبه فأصاب وجهه ومزق وجنته .

ولم تشوه هذه الضربة جماله ولكنها تركت بوجهه ندبا غير من معالمه . ومنذ أيام زارنا صديق لم يرنا مذ كنا فى اسبانيا فلم يعرف زوجى .

ولهذا أستطيع أن أقول وأنا موقنـــة ان لا خطر من عودته الى فرنسا ومقابلته أخته بلانش اذ يستحيل أن تعرف ان هـذا الأخ هو غير ذلك الذى عهدته منذ خمسة أعوام .

أتراك الآن فى فرنسا أم فى روســيا ؟ على انه مهما يكن من الأمر فقد اســــتقر عزمنا أنا والبرت على أن نخف اليك حيث تكونين لنشكرك مرة أخرى على ما أسديت الينا من خـير ، وما طوقت به أعناقنا من فضل لا يجحد .. الخ »

***

وبعد يومين تلقت الكونتس ارتوف رسالة من بلانش دامول تنبئها فيها بأنها تسلمت رسالة من أخيها يخطرها فيهـا بقرب عودته من بلاد الصين . وانه سيمضى فى اسبانيا شهرا ثم يحضر الى باريس .

واختتمت بلانش رسالتها بقولها :

« وقد عزمت أنا وزوجى فابيان على أن نسافر فــورا الى قادس لنكون فى استقبال ذلك الأخ العزيز الذى لم أره منــذ خمسة أعوام »

* * *

لم يكد الفيكونت داMول وزوجته يهبطان ميناء قادس حتى دعاهما القومندان الى زيارته شأنه مع كبار الزائرين الذين يفدون على المدينة

وكان هذا القومندان يدعى الكابتن جوميز اتركاز سلف الكابتن بدرو الذى عهدناه من قبل قد نقل الى منصب آخر

وقال الكابتن جوميز مخاطبا بلانش :

ـ أتحبين يا سيدتى الفيكونتس أن تزورى الليمان ..؟

فابتسمت بلانش وقالت :

ـ أموقن أنت يا سيدى القومندان من أن مجرميك لا يفكرون فى قتلى مثلا او سلبى جواهرى .؟

فضحك القومندان وقال :

ـ قد يكون المجرم خارج السجن من أشد الناس بأسا وسطوة ولكن اذا ما احتوته جدران السجون ارتد فى الغالب وديعا صامتا اذ يكسر الأسر من حدة طباعه .

وقبيل المساء مضى فابيان وزوجته والقومندان إلى زيارة السجن .

وكانت هذه هى الساعة التى يتناول فيها المسجونون طعام العشاء وقد تألبوا جماعة فى وسط المكان يأكلون ويتبادلون الحديث ..

وعندما رأوا القومندان مقبلا عليهم تناهضوا للوقوف احتراما . ولكنه امرهم بالجلوس .

وهناك على قيد ثلاثين خطوة راى القومندان أحد المساجين قد اعتزل اخوانه وانطرح على الأرض .

واذا رأى هذا السجين القومندان حاول بدوره أن ينهض واقفا . ولكنه عجز وتهاوى على الأرض وهو يئن متوجعا .

وقال القومندان يسأل السجان :

ـ ما شأن هذا الرجل ؟.

ـ انه المركيز .. وقد أصيب بصدع فى قدمه منذ قليل وسنرسله الى المستشفى فى هذا المساء .

ـ آه .! أهذا اذن هو المركيز .؟

ـ نعم يا سيدى القومندان

فضحك الفيكونت فابيان وقال :

ـ عجبا .! أيوجد فى الليمان من يحملون لقب المركيز .

فضحك القومندان وقال :

ـ ولكنه مركيز مزيف .. وهو فرنسى الجنسية .

ـ وأى جريمه ارتكب ..
ـ لا أدرى والله . فقد تقلدت منصبى الحالى منذ عهد قريب .. وكل ما أعرف من أمره انه حاول الفرار منذ خمســـة أعوام وشوه وجهه بماء النار حتى لا يعرفه مطاردوه . ولكنهم اهتدوا الى اثاره بعد ثمانية أيام وأعادوه الى السجن .
وجعل السجين يتأوه ألما . وغمغمت بلانش تقول :
ـ يا له من مسكين .!
واقتربت من السجين ونظرت اليه . رأت وجهه المشوه الذى تقذى به العيون . ثم لم تملك ان أطلقت صرخة داوية .
ومالت الى زوجها تقول فى صوت منخفض :
ـ يا للمسكين .! ان وجهه مشوه دميم .! ولكن يلوح لى انه يتعذب .. يخيل الى أن فى قلبه حزنا دفينا .
ثم رفعت صوتها وقالت مخاطبة القومندان :
ـ سيدى القومندان .! أرجوك أن تأمر بارسال هذا المسكين الى المستشفى فورا وان تأمر بمضاعفة العناية به .
واخرجت من حقيبتها حفنة من قطع النقود الذهبية دستها فى يد السجين المشوه وهى تقول :
ـ تجلد .! وتذرع بالصبر .! ان الله غفور رحيم .!
وأجاب السجين على هذه الكلمات الرحيمـــة بآهة متفجعة مكتــومة ..
ان هذه المرأة التى أشفقت عليه .. هذه المرأة التى طلبت له من الله الرحمة والمغفرة .!
هذه المرأة كانت تدعوه بالأخ العزيز .!
وفى هذه اللحظة نسى روكامبول أوجاعه الجسمية
نسى السلاسل المشدودة الى ساقيه .
نسى سياط السجانين وهى تنهال على كتفيه فى غير رحمـة او هوادة
وأمام عينيه مرق شبح خاطف .
شبح باريس بأنوارها .. وفتنتها .. ومتعاتها .
وانحدرت من عينيه دمعتان ساخنتان .
وفى يأس وقنوط غمغم يقول :
ـ رباه .. انها لم تعرفنى .!
كل ما احتملت وقاسيت حتى اليوم لم يكن شيئا مذكورا منذ هذه الساعة بدأ القصاص الحقيقى .

((تمت))

هيئة قناة السويس

حركة البضائع خلال شهر أكتوبر عام ١٩٦٢

حققت كميات البضائع التى عبرت القناة خلال شهر أكتوبر عام ١٩٦٢ زيادة قدرها ١٫٤٣٤٫٠٠٠ طن أى بنسبة ٩٫٦ ٪ على تلك العابرة خلال نفس الشهر من عام ١٩٦١ ، حيث بلغت فى شهر اكتوبر عام ١٩٦٢ — ١٦٫٣٣٨٫٠٠٠ طن مقابل ١٤٫٩٠٤٫٠٠٠ طن فى أكتوبر ١٩٦١ .

حركة البضائع من الشمال :

بلغت كميات البضائع السابرة من الشمال الى الجنوب خلال شهر أكتوبر عام ١٩٦٢ — ٢٫٥١٩٫٠٠٠ طن مقابل ٢٫٨٨٥٫٠٠٠ طن فى اكتوبر عام ١٩٦١ بنقص قدره ٣٦٦٫٠٠٠ طن أى بنسبة ١٢٫٧ ٪ ، ويرجع ذلك الى انخفاض كميات المواد البترولية والمعادن والسكر والاسمدة

وقد بلغت كميات المواد البترولية خلال شهر اكتوبر عام ١٩٦٢ — ٤٦٠٫٠٠٠ طن مقابل ٦٣٩٫٠٠٠ طن فى أكتوبر عام ١٩٦١ بنقص قدره ١٧٩٫٠٠٠ طن اى بنسبة ٢٨ ٪ ، ويعود ذلك الى انخفاض كميات البترول الخام بمقدار ٢٠٥٫٠٠٠ طن (٢٠٢٫٠٠٠ طن مقابل ٤٠٧٫٠٠٠ طن) والمازوت بمقدار ٥٢٫٠٠٠ طن (٨٤٫٠٠٠ طن ١٣٦٫٠٠٠ طن) والكيروسين بمقدار ٣٫٠٠٠ طن (٣٤٫٠٠٠ طن مقابل ٣٧٫٠٠٠ طن) والبنزين بمقدار ٦٫٠٠٠ طن (١٧٫٠٠٠ طن مقابل ٣٣٫٠٠٠ طن) بينما زادت كميات السولار والديزل بمقدار ٨٠٫٠٠٠ طن (١٠٧٫٠٠٠ طن مقابل ٢٧٫٠٠٠ طن) .

وبالنسبة لمناطق شحن المواد البترولية فقد صدر الاتحاد السوفيتى مايعادل ٨٢٪ من تلك المواد وايطاليا ٧٪ . واستقبلت اليابان ٥٣ ٪ . والجمهورية العربية المتحدة ١٣٪ والهند ١١ ٪ .

اما البضائع الاخرى عدا المواد البترولية فقد نقصت كمياتها بمقدار ١٨٧٫٠٠٠ طن (٢٫٠٥٩٫٠٠٠ طن مقابل ٢٫٢٤٦٫٠٠٠ طن) .

وبالنسبة للبضائع الرئيسية فنوضح فيما يلى نسب الزيادة أو النقص فى كمياتها مقارنة بمثيلتها العابرة فى اكتوبر عام ١٩٦١ .

الحبوب	+١٤ ٪
الآلات	+٨ ٪
السكر	−٦٠ ٪
المعادن	−٢٩ ٪
الأسمدة	−٢٨ ٪
الأسمنت	−٣ ٪

حركة البضائع من الجنوب :

سجلت كميات البضائع التى عبرت القناة من الشمال الى الجنوب خلال شهر أكتوبر عام ١٩٦٢ على تلك العابرة فى نفس الشهر من عام ١٩٦١ زيادة قدرها ١ر٨٠٠ر٠٠٠ طن أى بنسبة ١٥ ٪ (١٣ر٨١٩ر٠٠٠ طن خلال شهر أكتوبر عام ١٩٦٢ مقابل ١٢ر٠١٩ر٠٠٠ طن فى اكتوبر عام ١٩٦١) .

وترجع تلك الزيادة وبصفة رئيسية الى المواد البترولية التى زادت كمياتها بمقدار ١ر٦٩٣ر٠٠٠ طن أى بنسبة ١٧ر٥٪ حيث بلغت كميات اكتوبر ١٩٦٢ — ١١ر٣٥٨ر٠٠٠ طن مقابل ٩ر٦٦٥ر٠٠٠ طن فى اكتوبر ١٩٦١ .

وقد زادت جميع أنواع المواد البترولية بالمقادير الموضحة قرين كل مادة :

البترول الخام بمقدار ١٤ر٢٤٠ر٠٠٠ طن (١٠ر١٦٤ر٠٠٠ طن مقابل ٨ر٧٤٠ر٠٠٠ طن) .

المازوت بمقدار ١٧٤ر٠٠٠ طن (٥٧٤ر٠٠٠ طن مقابل ٤٠٠ر٠٠٠ طن) .

السولار والديزل بمقدار ٨١ر٠٠٠ طن (٣٥٩ر٠٠٠ طن مقابل ٢٧٨ر٠٠٠ طن) .

البنزين بمقدار ٣٩ر٠٠٠ طن (١٦٦ر٠٠٠ طن مقابل ١٢٧ر٠٠٠ طن) .

الكيروسين بمقدار ٢٦ر٠٠٠ طن (٦٢ر٠٠٠ طن مقابل ٣٦ر٠٠٠ طن) .

وتمثل كميات المواد البترولية نسبة قدرها ٨٢ ٪ من مجموع كميات البضائع العابرة شمالا خلال شهر أكتوبر عام ١٩٦٢ بينما كانت هذه النسبة ٨٠ ٪ فى أكتوبر عام ١٩٦١ .



العدد ٢٤٠ الثمن ٤ قروش